البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، مصنوعة وملحقة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدة من النسخ المطبوعة، فهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنّ بلاده، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلعة جنده، لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل، والمعظم بدمشق أيضا.

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف، وأرسل صوفيا من السميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه - وكان قد أخذ أذربيجان في هذه السنة وقوي جأشه - يتفق معه على أخيه الأشرف، فوعده النصر والرفادة،

وفيها قدم الملك المسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية، ومعه شيء كثير من الهدايا والتحف، من ذلك مائتا خادم، وثلاثة أفيلة هائلة، وأحمال عود وند ومسك وعنبر، وخرج أبوه الكامل لتلقيه، ومن نية أقسيس أن ينزع الشام من يد عمه المعظم.

وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر، وولى مشيختها الحافظ أبو الخطاب بن دحية الكلبي، وكان مكثاراً كثير الفنون، وعنده فوائد وغرائب وعجائب، رحمه الله.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن علي القادسي، الضرير الحنبلي**، والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزي، وكان القادسي هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، ويزهره لما يسمعه من الغرائب ويقول: والله إن ذا مليح، فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه، وصار يحضر ولا يتكلم، فقال الشيخ مرة: هذا القادسي لا يقرضنا شيئا ولا يقول والله إن ذا مليح؟ رحمهم الله تعالى.

وقد طلب القادسي مرة إلى دار المستضيء ليصلي بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع: ما مذهبك؟ فقال: حنبلي، فقال له: لا تصل بدار الخلافة وأنت حنبلي، فقال: أنا حنبلي ولا أصلي بكم، فقال الخليفة: اتركوه لا يصلي بنا إلا هو فصلى بهم.

أبو الكرم

■ **المظفر بن المبارك بن أحمد بن محمد البغدادي الحنفي** شيخ مشهد أبي حنيفة وغيره، ولي الحسبة بالجانب الغربي من بغداد، وكان فاضلا دينا شاعرا، ومن شعره:

فصن بجميل الصبر نفسك واغتنم ... شريف المزايا لا يفتك ثوابها
تعش سالما والقول فيك مهذب ... كريما وقد هانت عليك صعابها
وتندرج الأيام والكل ذاهب ... يمرُّ ويفنى عذبها وعذابها
فما الدهر إلا مر يوم وليلة ... وما العمر إلا طيها ونعابها
وما الحزم إلا في إخاء عزيمة ... فنيل المعالي صفوها ولبابها
ودع عنك إلمام الأماني فإنه ... سيسفر يوما غيها وصوابها

■ **محمد بن أبي الفرج بن معالي بن بركة**: الشيخ فخر الدين أبو المعالي الموصلي، قدم بغداد، واشتغل بالنظامية وأعاد بها، وكانت له معرفة بالقراءات، وصنف كتابا في مخارج الحروف، وأسند الحديث، وله شعر لطيف.

أبو بكر

■ **ابن حلبة الموازيني البغدادي**: كان فردا في علم الهندسة، وصناعة الموازين، يخترع أشياء غريبة عجيبة، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب، وجعل في كل ثقب شعرة، وكانت له حظوة عند الدولة.

■ **أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الدُّيثي** البيع الواسطي، شيخ أديب فاضل، له نظم ونثر، عارف بالأخبار والسير، وعنده كتب جيدة كثيرة، وله شرح قصيدة لأبي العلاء المعري في ثلاثة مجلدات، وقد أورد له ابن الساعي شعرا حسنا، فصيحا حلوا لذيذا في السمع، لطيفا في القلب.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحي العراق، فأفسدوا فيه، وحاصروا مدنه، ونهبوا قراه.

وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان، وكثيرا من بلاد الكرج، وكسر الكرج وهم في سبعين ألف مقاتل، فقتل منهم عشرين ألفا من المقاتلة، واستفحل أمره جدا، وعظم شأنه، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفا.

وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفا في المعركة، وقتل من تفليس تمام المائة ألف.

وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها، ففتحها قهراً، وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب سورها، وعزم على قصد الخليفة ببغداد، لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك، واستولت التتار على البلاد، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك، فامتنع المعظم من ذلك، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد أزعج لذلك، وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد، وأنفق في الناس ألف ألف دينار، وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج، فبعثوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا، وبغداد ما تفوت، فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا.

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام، بسبب قلة الأمطار، وانتشار الجراد، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً، فمات بسببه خلق كثير في البلدان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة، توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسين بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي عبد العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، أبي العباس أحمد بن الموفق، أبي أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله، أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين.

ولد ببغداد عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وخمسمائة وتوفي في هذه السنة، وله من العمر تسع وستون سنة، وشهران، وعشرون يوماً.

وكانت مدة خلافته سبعا وأربعين سنة إلا شهرا، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله في الخلافة هذه المدة الطويلة، ولم تطل مدة أحد من الخلفاء مطلقا أكثر من المستنصر العبيدي.

أقام بمصر حاكما ستين سنة، وقد انتظم في نسبه أربعة عشر خليفة، وولي عهد على ما رأيت، وبقية الخلفاء العباسيين كلهم من أعمامه وبني عمه،وكان مرضه قد طال به، وجمهوره من عسار البول، مع أنه قد كان يجلب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى، وشق ذكره مرات بسبب ذلك، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئا، وكان الذي ولي غسله محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وصلى عليه، ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى التربة من الرصافة، في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، وكان يوماً مشهودا.

قال ابن الساعي: أما سيرته فقد تقدمت في الحوادث.

وأما ابن الأثير في كامله [٤٤٠/١٢] فإنه قال: وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا، وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوماً ومات، وزر له عدة وزراء، وقد تقدم ذكرهم، ولم يطلق في أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة.

وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالما لهم، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دوراً للإفطار في رمضان، ودورا لضيافة الحجاج، ثم أبطل ذلك، وكان قد أسقط مكوساً ثم أعادها، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة.

قال ابن الأثير: وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم.

قلت: وقد ذكر عنه أشياء غريبة، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه: فعلتم في مكان كذا وكذا وكذا، وفعلتم في الموضع الفلاني كذا، حتى ظن بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يكاشف أو أن جنياً يأتيه بذلك، والله أعلم.

خلافة الظاهر بن الناصر

لما توفي الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبي نصر محمد هذا ولقبه بالظاهر، وخطب له على المنابر، ثم عزله عن ذلك بأخيه علي، فتوفي في حياة أبيه سنة ثنتي عشرة، فاحتاج إلى إعادة هذا لولاية العهد، فخطب له ثانيا، فحين توفي أبوه بويع له بالخلافة، وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة، فلم يل الخلافة من بني العباس أسن منه.

وكان عاقلا وقورا دينا، عادلا محسنا، رد مظالم كثيرة، وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه، وسار في الناس سيرة حسنة، حتى قيل: إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يحل عليه الحول، بل كانت مدته تسعة أشهر، أسقط الخراج الماضي عن الأراضي التي قد تعطلت، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهي بعقوبا سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم في الخراج، وكانت صنجة المخزن تزيد على صنجة البلد نصف دينار في كل مائة إذا قبضوا، وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد، فكتب إلى الديوان: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يَسْتَوْفُونَ. وإذا كَالُوهُمْ او وَزَنُوهُمْ يُخْسِرون. الا يَظُنُّ أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يَقُوم الناسُ لِرَبِّ العالمين﴾ [المطففين: ١-٦] فكتب إليه بعض الكتاب يقول يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا عن العام الماضي خمسة وثلاثون ألفا، فأرسل ينكر عليه ويقول: هذا يترك وإن كان تفاوته ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا، رحمه الله، وأمر للقاضي: أن كل من ثبت له حق بطريق شرعي يوصل إليه بلا مراجعة.

وأقام في النظر على الأموال الحشرية رجلا صالحا، واستخلف على القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي، في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة، فكان من خيار المسلمين، ومن القضاة العادلين، رحمهم الله أجمعين، ولما عرض عليه القضاء لم يقبله إلا بشرط أن يورث ذوي الأرحام، فقال: أعط كل ذي حق حقه، واتق الله ولا تتق سواه، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب في كل صباح بما كان عندهم في المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة، فلما ولي الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال: أي فائدة في كشف أحوال الناس وهتك أستارهم فقيل له: إن ترك ذلك يفسد الرعية، فقال: نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم، وأطلق من كان في السجون معتقلا على الأموال الديوانية، ورد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم، وأرسل إلى القاضي بعشرة آلاف دينار يوفي بها ديون من في سجونه من المدينين الذين لا يجدون وفاء، وفرق في العلماء بقية المائة ألف، وقد لامه بعض الناس في هذه التصرفات، فقال: إنما فتحت الدكان بعد العصر، فذروني أعمل صالحا وأفعل الخير، فكم مقدار ما بقيت أعيش.

ولم تزل هذه سيرته حتى توفي في العام الآتي كما سيأتي، ورخصت الأسعار في أيامه، وقد كانت قبل ذلك في غاية الشدّة والغلاء، حتى إنه فيما حكى ابن الأثير: أكلت الكلاب والسنانير والميتات ببلاد الجزيرة والموصل، فزال ذلك والحمد لله.

وكان هذا الخليفة الظاهر حسن الشكل، مليح الوجه، أبيض مشربا، حلو الشمائل، شديد القوى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **(نور الدين بن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب)**

أبو الحسن علي الملقب بالملك الأفضل: نور الدين ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، كان ولي عهد أبيه، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين، ثم أخذها منه عمه العادل، ثم كاد أن يملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز عثمان، فأخذها منه عمه العادل أبو بكر، ثم اقتصر على ملك صرخد، فأخذها منه أيضا عمه العادل، ثم آل به الحال أن ملك سميساط وبها توفي في هذه السنة.

وكان فاضلا شاعراً، جيد الكتابة، ونقل إلى مدينة حلب فدفن بها بظاهرها رحمه الله تعالى.

وقد ذكر ابن خلكان أنه كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو إليه عمه أبا بكر، وأخاه عثمان، وكان الناصر شيعيا مثله فقال:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي

وهو الذي كان قد ولاه والده عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته والأمر بينهما والنص فيه جلي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

الأمير سيف الدين علي بن الأمير علم الدين بن سليمان

■ ابن جندر، كان من أكابر الأمراء بحلب، وله الصدقات الكثيرة، ووقف بها مدرستين: إحداهما على الشافعية، والأخرى على الحنفية، وبنى الخانات والقناطر، وغير ذلك من سبل الخيرات والغزوات، رحمه الله.

الشيخ

■ علي الكردي: المولد المقيم بظاهر باب الجابية:

قال الشيخ أبو شامة: وقد اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وأنكر ذلك آخرون، وقالوا: ما رآه أحد يصلي ولا يصوم، ولا لبس مداسا، بل كان يدوس النجاسات، ويدخل المسجد على حاله. وقال آخرون: كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه، حكى السبط عن امرأة قالت: جاء خبر عن أمي باللاذقية أنها ماتت، وقال لي بعضهم: إنها لم تمت، قالت: فمررت به وهو قاعد عند المقابر، فوقفت عنده، فرفع رأسه وقال لي: ماتت ماتت إيش تعملين؟ فكان كما قال.

وحكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوماً وما كان معي شيء، فاجتزت به فدفع إلي نصف درهم وقال: يكفي هذا للخبز والعنبريس.

وقال: دخل يوماً على الخطيب جمال الدين الدولعي فقال له: يا شيخ علي، أكلت اليوم كسيرات يابسة، وشربت عليها الماء فكفتني، فقال له الشيخ علي الكردي: وما تطلب نفسك شيئاً آخر غير هذا؟ قال: لا، فقال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة، ولا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.

الفخر

■ ابن تيمية: محمد بن أبي القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحراني، عالمها ومتيتها وخطيبها وواعظها، اشتغل على مذهب الإمام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل، وجمع تفسيراً حافلا في مجلدات كثيرة، وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه، وهو عم الشيخ مجد الدين صاحب «المنتقى» في الأحكام، قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد:

أحبابنا قد نذرتُ مقلتي ما تلتقي بالنوم أو نلتقي
رفقاً بقلب مغرمٍ واعطفوا على سقام الجسد المحرقِ
كم تمطلوني بليالي اللقا قد ذهب العمر ولم نلتقِ

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجاً بعد وفاة شيخه أبي الفرج بن الجوزي، ووعظ بها في مكان شيخه.

الوزير ابن شكر: صفي الدين أبو محمد

■ عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر، ولد بالديار المصرية بدميرة، بين مصر وإسكندرية، سنة أربعين وخمسمائة، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر، وقد وزر للملك العادل، وعمل أشياء في أيامه منها تليط جامع دمشق، وأحاط سور المصلى عليه، وعمل الفوارة ومسجدها، وعمارة جامع المزة، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة، وبقي معزولا إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته، وقد كان مشكور السيرة، ومنهم من يقول: كان ظالماً. فالله أعلم.

أبو إسحاق

■ إبراهيم بن المظفر بن إبراهيم بن علي المعروف بابن البرني، الواعظ البغدادي، أخذ الفن عن شيخه أبي الفرج بن الجوزي، وسمع الحديث الكثير، ومن شعره قوله في الزهد:

ما هذه الدنيا بدار مسرة فتخوفي مكراً لها وخداعا
بينا الفتى فيها يسر بنفسه وبماله يستمتع استمتاعا
حتى سقته من المنية شربة وحمته منه بعد ذاك رضاعا
فغدا بما كسبت يداه رهينة لا يستطيع لما عراه دفاعا
لو كان ينطق قال من تحت الثرى فليحسن العمل الفتى ما استطاعا

أبو الحسن

■ علي بن الحسن: الرازي ثم البغدادي الواعظ، عنده فضائل، وله شعر حسن، فمنه قوله في الزهد:

استعدي يا نفس للموت واسعي لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحي خلود ولا من الموت بد
إنما أنت مستعيرة ما سو ف ترديـن والعواري ترد
أنت تسهين والحوادث لا ت سهو وتلهين والمنايا تجد
لا ترجي البقاء في معدن المو ت ودارٍ حتوفها لك ورد
أي ملك في الأرض لم أي حظ لامرئ حظه من الأرض لحد
كيف يهوى امرؤ لذاة أيا م عليه الأنفاس فيها تعد

■ البهاء السنجاري: أبو السعادات أسعد بن يحيى بن موسى، الفقيه الشافعي الشاعر.

قال ابن خلكان: كان فقيها، وتكلم في الخلاف، إلا أنه غلب عليه الشعر، فأجاد فيه، واشتهر بنظمه، وخدم به الملوك، وأخذ منهم الجوائز، وطاف البلاد، وله ديوان بالتربة الأشرفية بدمشق، ومن رقيق شعره ورائقه قوله:

وهواك ما خطر السلو ببالـه ولأنت أعلم في الغرام بحالـه
ومتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عذالـه
أو ليس للكلف المعنّى شاهد من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ستـ ـر غرامه وصرمت حبل وصاله

وهي قصيدة طويلة امتدح فيها القاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وله:

للّه أيامي على رامة وطيب أوقاتي على حاجر
تكاد للسرعة في مرها أولها يعثر بالآخر

وكانت وفاته في هذه السنة عن تسعين سنة رحمه الله بمنه وفضله.

■ عثمان بن عيسى بن درباس بن فير بن جهم بن عبدوس، الهذباني الماراني، ضياء الدين أخو القاضي صدر الدين عبد الملك، حاكم الديار المصرية في الدولة الصلاحية، وضياء الدين هذا هو شارح المهذب وصل فيه إلى كتاب الشهادات، في نحو من عشرين مجلدا، وشرح اللمع في أصول الفقه، والتنبيه للشيرازي، وكان بارعا عالما بالمذهب رحمه الله تعالى.

أبو محمد

■ عبد الله بن أحمد بن الزيتوني: البوازيجي ثم البغدادي، شيخ فاضل له رواية، ومما أنشده:

ضيق العذر في الضراعة أنا ... لو قنعنا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبدُ العبادَ إذا كان ... إلى اللّه فقرنا وغنانا

أبو الفضل

■ عبد الرحيم بن نصرالله بن علي بن منصور بن الكيال، الواسطي، من بيت الفقه والقضاء، وكان أحد المعدلين ببغداد، ومن شعره:

فتباً لدنيا لا يدوم نعيمها ... تسر يسيراً ثم تبدي المساويا
تريك جمالا في النقاب وزخرفا ... وتسفر عن شوهاء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله:

إن كنت بعد الظاعنين تسامحت ... بالغمض أجفاني فما أجفاني
أو كنت من بعد الأحبة ناظراً ... حسناً بإنساني فما أنساني
الدهر مغفورٌ له زلاته ... إن حاد أوطاني على أوطاني

أبو علي

■ الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمار بن فهر بن وقاح الياسري، نسبة إلى عمار بن ياسر، شيخ بغدادي فاضل، له مصنفات في التفسير والفرائض، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة، وكان مقبول الشهادة عند الحكام.

ابو بكر

■ محمد بن يوسف بن الطباخ: الواسطي البغدادي الصوفي، باشر بعض الولايات ببغداد، ومما أنشده:

ما وهبَ اللّه لا مرئ هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه
ها جمال الفتى فإن فقدا ... ففقدهُ للحياة أجمل به

■ ابن يونس شارح التنبيه: أبو الفضل أحمد بن الشيخ العلامة كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عابد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الإربلي الأصل، ثم الموصلي، من بيت العلم والرياسة، اشتغل على أبيه في فنونه وعلومه، فبرع وتقدم، وقد درس وشرح كتاب التنبيه، واختصر إحياء علوم الدين للغزالي مرتين صغيرا وكبيرا، وكان يدرس منه.

قال ابن خلكان: وقد ولي بإربل مدرسة الملك المظفر، بعد موت والدي في سنة عشر وستمائة، وكنت أحضر عنده وأنا صغير ولم أر أحدا يدرس مثله، ثم صار إلى بلده سنة سبع عشرة، ومات في يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة، عن سبع وأربعين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمي مع الكرج، فكسرهم كسرة عظيمة، وصمد إلى أكبر معاقلتهم تفليس ففتحها عنوة، وقتل من فيها من الكفرة، وسبى ذراريهم، ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها، واستقر ملكه عليها، وقد كان الكرج أخذوها من المسلمين في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وهي بأيديهم إلى الآن، حتى استنقذها منهم جلال الدين هذا، فكان فتحاً عظيماً ولله الحمد والمنة.

وفيها سار إلى خلاط ليأخذها من نائب الملك الأشرف، فلم يتمكن من أخذها، وقاتله أهلها قتالا عظيما، فرجع عنهم بسبب اشتغاله بعصيان نائبه بمدينة كرمان وخلافه له،فسار إليه وتركهم.

وفيها اصطلح الملك الأشرف مع أخيه المعظم وسار إليه إلى دمشق، وكان المعظم ممالئا عليه مع جلال الدين، وصاحب إربل، وصاحب ماردين، وصاحب الروم، وكان مع الأشرف أخوه الكامل، وصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ثم استمال أخاه المعظم إلى ناحيته يقوي جانبه.

وفيها كان قتال كبير بين إبرنس أنطاكية وبين الأرمن، وجرت خطوب كثيرة بينهم.

وفيها أوقع الملك جلال الدين بالتركمان الإيوانية بأساً شديداً، وكانوا يقطعون الطرق على المسلمين.

وفيها قدم محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن الجوزي من بغداد في الرسلية إلى الملك المعظم بدمشق، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله، ومضمون الرسالة: نهيه عن موالاة جلال الدين بن خوارزم شاه، فإنه خارجي من عزمه قتال الخليفة، وأخذ بغداد منهم، فأجابه إلى ذلك، وركب القاضي محيي الدين بن الجوزي إلى الملك الكامل بالديار المصرية، وكان ذلك أول قدومه إلى الشام ومصر، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك، منها كان بناء مدرسته الجوزية بالنشابين بدمشق.

وفيها ولي تدريس الشبلية بالسفح شمس الدين يوسف بن قزغلي سبط ابن الجوزي بمرسوم الملك المعظم، وحضر عنده أول يوم القضاة والأعيان.

وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله وخلافة ابنه المستنصر

كانت وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة، ضحى الثالث عشر من رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة، فدعا له الخطباء يومئذ على المنابر على عادتهم، فكانت خلافته تسعة أشهر، وأربعة عشر يوما، وعمره اثنتان وخمسون سنة.

وكان من أجود بني العباس سيرة وأحسنه وسريرة، وأكثرهم عطاء، وأحسنهم منظرا ورواء، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيرا على يديه، ولكن أحب الله تقريبه وإزلافه لديه، فاختار له ما عنده، وأجزل له إحسانا ورفده، وقد ذكرنا ما اعتمده في أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانية، ورد المظالم، وإسقاط المكوس، وتخفيف الخراج عن الناس، وأداء الديون عمن عجز عن أدائها، والإحسان إلى العلماء والفقراء، وتولية ذوي الديانة والأمانة، وقد كان كتب كتابا لولاة الرعية فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا، ولا إغضاؤنا احتمالا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح السمعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي، حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمزجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم

أمنا، ويفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه علي خلقه، وإلا هلكتم والسلام.

ووجد في داره رقاع مختومة لم تفتح فيها سعايات إليه بسبب أناس كثيرة من الولاة وغيرهم لم يفتحها سترا للناس، ودرءا عن أعراضهم رحمه الله.

وقد خلف من الأولاد عشرة ذكوراً وإناثا، منهم ابنه الأكبر الذي بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور، ولقب بالمستنصر بالله، وغسله الشيخ محمد الخياط الواعظ، ودفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة رحمه الله تعالى.

خلافة المستنصر بالله العباسي أمير المؤمنين أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد

بويع بالخلافة يوم مات أبوه، يوم جمعة ثالث عشر رجب من هذه السنة، سنة ثلاث وعشرين وستمائة، استدعوا به من التاج فبايعه الخاصة والعامة من أهل الحلّ والعقد، وكان يوما مشهودا، وكان عمره يومئذ خمساً وثلاثين سنة، وخمسة أشهر وأحد عشر يوما، وكان من أحسن الناس شكلا، وأبهاهم منظرا، وهو كما قال القائل:

كأن الثريا علقت في جبينه وفي خده الشعرى وفي وجهه

وفي نسبه الشريف خمسة عشر خليفة، منهم خمسة من آبائه ولوا نسقا، وتلقى هو الخلافة عنهم، وراثة كابرا عن كابر، وهذا شيء لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله.

وسار في الناس كسيرة أبيه الظاهر في الجود، وحسن السيرة، والإحسان إلى الرعية، وبنى المدرسة الكبيرة المستنصرية التي لم تبن مدرسة في الدنيا مثلها، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

واستمر أرباب الولايات الذين كانوا في عهد أبيه على ما كانوا عليه، ولما كان يوم الجمعة المقبلة خطب للإمام المستنصر بالله علي المنابر، ونثر الذهب والفضة عند ذكر اسمه، وكان يوما مشهودا، وأنشد الشعراء المدائح والمراثي، وأطلقت لهم الخلع والجوائز، وقدم رسول من صاحب الموصل يوم غرة شعبان من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة.

ثم إن المستنصر بالله كان يواظب علي حضور الجمعة، راكبا ظاهراً للناس، وإنما معه خادمان وركب دار، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة فقال: ما هذا؟ فقيل له التأذين، فترجل عن فرسه وسعى ماشياً، ثم صار يدمن المشي إلى الجمعة رغبة في التواضع والخشوع، ويجلس قريبا من الإمام ويستمع الخطبة، ثم أصلح له المطبخ فكان يمشي فيه إلى الجمعة، وركب في الثاني والعشرين من شعبان ركوبا ظاهراً للناس عامة، ولما كانت أول ليلة من رمضان تصدق بصدقات كثيرة من الدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء والمحاويج، إعانة لهم على الصيام، وتقوية لهم على القيام.

وفي يوم السابع والعشرين من رمضان نقل تابوت أبيه الظاهر من دار الخلافة إلى التُرب من الرصافة، وكان يوماً مشهودا، وبعث الخليفة المستنصر يوم العيد صدقات كثيرة وإنعاما جزيلا إلى الفقهاء والصوفية وأئمة المساجد، علي يدي محيي الدين بن الجوزي.

وذكر ابن الأثير أنه كانت زلزلة عظيمة في هذه السنة، هدمت شيئاً كثيراً من القرى والقلاع ببلادهم، وذكر أنه ذبح رجل شاة ببلدهم فوجد لحمها مراً حتى رأسها وأكارعها ومعاليقها وجميع أجزائها.

وممن توفي فيها من الأعيان

الخليفة

■ **الظاهر** كما تقدم.

الجمال المصري:

■ **يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصري**، قاضي القضاة بدمشق في هذا الحين، اشتغل وحصل، وبرع واختصر كتاب الأم للإمام الشافعي، وله كتاب مطول في الفرائض، وولي تدريس الأمينية بعد التقي صالح الضرير، الذي قتل نفسه، ولاه إياه الوزير صفي الدين بن شكر، وكان معتنياً بأمره، ثم ولي وكالة بيت المال بدمشق، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق، ثم ولاه المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكي بن الزكي، وولاه تدريس العادلية الكبيرة، حين كمل بناؤها، فكان أول من درس بها وحضره الأعيان كما ذكرنا، وكان يقول أولا درسا في التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره، ثم توفي عقب ذلك ويقول درس الفقه بعد التفسير، وكان يعتمد في أمر إثبات السجلات اعتماداً حسنا، وهو أنه كان يجلس في كل جمعة بكرة ويوم الثلاثاء، ويستحضر عنده في إيوان العادلية جميع شهود البلد، ومن كان له كتاب يثبته حضر، واستدعى شهوده فأدوا على الحاكم، وثبت ذلك سريعا، وكان يجلس كل يوم جمعة بعد العصر بمشهد عثمان، فيحكم حتى يصلي المغرب، وربما مكث حتى يصلي العشاء أيضا.

وكان كثير المذاكرة للعلم، كثير الاشتغال، حسن الطريقة، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئا لأحد.

قال أبو شامة: وإنما كان ينقم عليه أنه كان يشير على بعض الورثة بمصالحة بيت المال، وأنه استناب ولده التاج محمداً ولم يكن مرضي الطريقة، وأما هو فكان عفيفا في نفسه، نزهاً مهيباً.

قال أبو شامة: وكان يدعي أنه قرشي شيبي، فتكلم الناس فيه بسبب ذلك، وتولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليلي الخُوَيِّي.

قلت: وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن بداره التي في رأس درب الريحان من ناحية الجامع، ولتربته شباك شرقي المدرسة الصدرية اليوم، وقد قال فيه ابن عنين وكان هجاء.

ما أقصر المصري في فعله إذ جعل التربة في داره

أراح للأحياء من رجمه وأبعد الأموات من ناره

■ **المعتمد والي دمشق**: المبارز إبراهيم المعروف بالمعتمد والي دمشق.

من خيار الولاة وأعفهم، وأحسنهم سيرة، وأجودهم سريرة، أصله من الموصل، وقدم الشام فخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ثم استنابه البدر مودود أخو فروخشاه، وكان شحنة دمشق، فحمدت سيرته في ذلك، ثم صار هو شحنة دمشق أربعين سنة، فجرت في أيامه عجائب وغرائب.

وكان كثير الستر علي ذوي الهيئات، ولاسيما من كان من أبناء الناس

وأهل البيوتات، واتفق في أيامه أن رجلا حائكا كان له ولد صغير في آذانه حلق، فعدا عليه رجل من جيرانهم فقتله غيلة، وأخذ ما عليه من الحلي، ودفنه في بعض المقابر، فاشتكوا عليه فلم يقر بشيء، فتألمت والدته من ذلك وسألت زوجها أن يطلقها، فطلقها فذهبت إلى ذلك الرجل الذي قتل ولدها وسألته أن يتزوجها، وأظهرت له أنها قد أحبته فتزوجها، ومكثت عنده حينا، ثم سألته في بعض الأوقات عن ولدها الذي اشتكوا عليه بسببه فقال: نعم أنا قتلته، فقالت: أشتهي أن تريني قبره حتى أنظر إليه، فذهب بها إلى قبر خشخاشة ففتحه فنظرت إلى ولدها فاستعبرت، وقد أخذت معها سكينا أعدتها لهذا اليوم، فضربته حتى قتلته ودفنته مع ولدها في ذلك القبر، فجاء أهل المقبرة فحملوها إلى الوالي المعتمد هذا، فسألها، فذكرت له خبرها، فاستحسن ذلك منها، وأطلقها وأحسن إليها.

وحكى هو للسبط قال: بينما أنا يوما خارج من باب الفرج وإذا برجل يحمل طبلا وهو سكران، فأمرت به فضرب الحد، وأمرتهم فكسروا الطبل، وإذا ركوة كبيرة خمراً فشقوها وكان العاذل قد منع أن يعصر خمر ويحمل إلى دمشق شيء منه بالكلية، فكان الناس يتحيلون بأنواع الحيل ولطائف المكر، قال السبط: فسألته من أين علمت أن في الطبل شيئا؟ قال: رأيته يمشي ترجف ساقاه، فعرفت أنه يحمل شيئا ثقيلا في الطبل.

وله من هذا الجنس غرائب، وقد عزله المعظم وكان في نفسه منه وسجنه في القلعة نحوا من خمس سنين، ونادى عليه في البلد، فلم يجئ أحد ذكر أنه أخذ منه حبة خردل.

ولما مات رحمه الله دفن بتربته المجاورة لمدرسة أبي عمر من شامها قبلي السوق، وله عند تربته مسجد يعرف به رحمه الله.

واقف الشبلية التي بطريق الصالحية.

■ **شبل الدولة كافور الحسامي**: نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين، ولد ست الشام، وهو الذي كان مستحثا على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام، وهو الذي بنى الشبلية للحنفية، والخانقاه على الصوفية إلى جانبها، وكانت منزله، ووقف القناة والمصنع والساباط، وفتح للناس طريقا من عند المقبرة غربي الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفي بالعقيبة رحمه الله تعالى، وكانت وفاته في رجب، ودفن إلى جانب مدرسته، وقد سمع الحديث على الكندي وغيره، رحمه الله تعالى.

واقف الرواحية بدمشق وحلب: أبو القاسم

■ **هبة الله بن محمد بن عبد الواحد المعروف** بابن رواحة، كان أحد التجار، وذوي الثروة والمقدار، ومن المعدلين بدمشق، وكان في غاية الطول والعرض، ولا لحية له، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس ووقفها على الشافعية، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، وله بحلب مدرسة أخرى مثلها، وقد انقطع في آخر عمره في المدرسة التي بدمشق، وكان يسكن البيت الذي في إيوانها من الشرق، ورغب فيما بعد أن يدفن فيه إذا مات فلم يمكن من ذلك، بل دفن بمقابر الصوفية، وبعد وفاته شهد محيي الدين بن عربي الطائي الصوفي، وتقي الدين خزعل النحوي المصري المقدسي ثم الدمشقي إمام مشهد علي، شهدا على ابن رواحة بأنه عزل الشيخ تقي الدين عن هذه المدرسة، فجرت خطوب طويلة، ولم ينتظم ما راموه من الأمر، ومات خزعل في هذه السنة أيضاً فبطل ما سلكوه.

أبو محمد

■ **محمود بن مودود بن محمود بن بلدجي الحنفي الموصلي**، وله بها مدرسة تعرف به، وكان من أبناء الترك، وصار من مشايخ العلماء، وله دين متين، وشعر حسن جيد، فمنه قوله:

من ادّعى أن له حالة تُخرجُهُ عن منهج الشرع
فلا تكونَنَّ له صاحباً فإنهُ خرء بلا نفع

كانت وفاته بالموصل، في السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وله نحو من ثمانين سنة رحمه الله تعالى.

■ **ياقوت ويقال له يعقوب بن عبد الله**: نجيب الدين مولى الشيخ تاج الدين الكندي، وقد وقف عليه الشيخ التي بالخزانة، بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلداً، ثم على ولده من بعده، ثم على العلماء، فتمحقت هذه الكتب، وبيع أكثرها، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب، وشعر جيد، وكانت وفاته ببغداد في مستهل رجب، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع عشرين وستمائة

فيها كانت عامة أهل تفليس الكرج، فجاؤوا إليهم فدخلوها، فقتلوا العامة والخاصة، ونهبوا وسبوا، وخربوا وأحرقوا، وخرجوا على حمية، وبلغ ذلك جلال الدين، فسار سريعاً ليدركهم فلم يدركهم.

وفيها قتلت الإسماعيلية أميرا كبيرا من نواب جلال الدين بن خوارزم شاه، فسار إلى بلادهم، فقتل منهم خلقا كثيرا، وخرب مدينتهم، وسبى ذراريهم، ونهب أموالهم، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين، لما قدم التتار إلى الناس، وكانوا أضر على الناس منهم.

وفيها تواقع جلال الدين وطائفة كبيرة من التتار فهزمهم، وأتبعهم قتلا وأسراً، وساق وراءهم أياماً فقتلهم، حتى وصل إلى الري، فبلغه أن طائفة قد جاؤوا لقصده فأقام يبطهم، وكان من أمره وأمرهم ما سيأتي في سنة خمس وعشرين.

وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف بن العادل إلى أذربيجان، فملكوا منها مدنا كثيرة، وغنموا أموالا جزيلة، وخرجوا معهم بزوجة الملك جلال الدين بنت طغرل، وكانت تبغضه وتعاديه، فأنزلوها مدينة خلاط، وسيأتي ما كان من خبرهم في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج في البحر إلى المعظم، يطلب منه ما كان فتحه عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل، فأغلظ لهم المعظم في الجواب، وقال له: قل لصاحبك ما عندي إلا السيف. والله أعلم.

وفيها جهز الأشرف أخاه شهاب الدين غازي إلى الحج في محمل عظيم، يحمل ثقله ستمائة جمل، ومعه خمسون هجينا، على كل هجين مملوك، فسار من ناحية العراق، وجاءته هدايا من الخليفة إلى أثناء الطريق، وعاد على طريقه التي حج منها.

وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد نجم الدين أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، وخلع عليه كما هي عادة الحكام، وكان يوماً مشهودا.

وفيها كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة، وقل اللحم حتى حكى ابن الأثير: أنه لم يذبح بمدينة الموصل في بعض الأيام سوى خروف واحد في

زمن الربيع.

قال: وسقط فيها عاشر آذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق مرتين، فأهلك الأزهار وغيرها، وقال: وهذا شيء لم يعهد مثله، والعجب كل العجب من العراق مع كثرة حره كيف وقع فيه مثل هذا.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ جنكيز خان: السلطان الأعظم عند التتار، والد ملوكهم اليوم، ينتسبون إليه، ويقولون: ومن عظم القان إنما يريد هذا الملك، وهو الذي وضع لهم الياساق التي يتحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شيء اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكانت أمه تزعم أنها حملته من شعاع الشمس، فلهذا لا يعرف له أب، والظاهر أنه مجهول النسب، وقد رأيت مجلداً جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجويني في ترجمته، فذكر فيه سيرته، وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي، والكرم والشجاعة، والتدبير الجيد للملك والرعايا، والحروب، فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصاً عند الملك أزبك خان، وكان إذ ذاك شابا حسنا، وكان اسمه أولا تمرجَي، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيز خان، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه، فحسده عظماء الملك، ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه، وهمّ بقتله، ولم يجد له طريقا في ذنب يتسلط عليه به، فهو في ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجآ إلى جنكيز خان، فأكرمهما وأحسن إليهما، فأخبراه بما يضمره الملك أزبك خان من قتله، والهمّ به، فأخذ حذره، وتميز بدولة، واتبعه طوائف من التتار، وصار كثير من أصحاب أزبك خان ينفرون إليه، ويفدون عليه فيكرمهم ويعطيهم، حتى قويت شوكته، وكثرت جيوشه، ثم حارب بعد ذلك أزبك خان فظفر به وقتله، واستحوذ على مملكته وملكه، وانضاف إليه عدده وعدده، وعظم أمره وبعد صيته، وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج كلها، حتى صار يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل، وأكثر القبائل قبيلته التي هو منها يقال لهم قيات، ثم أقرب إليه بعدهم قبيلتان كثيرتا العدد وهما أويرات وقنقورات، وكان يصطاد من السنة ثلاثة أشهر، والباقي للحرب والحكم.

قال الجويني: وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر، ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوانات شيء كثير لا يحد كثرة، ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك جلال الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وغير ذلك من الأقاليم والممالك، فقهره جنكيزخان وكسره وغلبه وسلبه، واستحوذ على سائر بلاده بنفسه وبأولاده في أيسر مدة كما ذكرنا ذلك في الحوادث، وكان ابتداء ملك جنكيز خان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة كما ذكرنا، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع.

وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة، فجعلوه في تابوت من حديد، وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هنالك، وأما كتابه الياساق فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير معظّم عندهم وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعيي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة، فسمع قائلا يقول له: إنا قد ملكنا جنكيز خان وفرنيته وجه الأرض.

قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلماً.

ثم ذكر الجويني نتفا من الياساق من ذلك: أنه من زنى قتل، محصنا كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل، ومن وجد هارباً ولم يردّه قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئا فليأكل منه أولا، ولو كان المطعِمُ أميراً لأسير، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله، بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا.

وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياساق قدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٠] وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بينهم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥] صدق الله العظيم.

ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان، ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت.

وقد ذكر علاء الدين الجويني طرفا كبيرا من أخبار جنكيز خان، ومكارم كان يفعلها لسجيته، وما أداه إليه عقله، وإن كان مشركا بالله، يعبد معه غيره، وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجارا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجته كشلي خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لا يعلم به، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك. فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرق وكبرت سنه، وقد ورد الحديث: «اتركوا الترك ما تركوكم» [د(٤٣٠٢)، ن(٣١٧٦)] فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع.

فمما ذكره الجويني عنه أنه قدم له بعض الفلاحين بالصيد ثلاث

بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزندارية، فقال لزوجته خاتون أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما جوهرتان نفيستان جداً، فشحت المرأة بهما وقالت: أنظره إلى غد، فقال: إنه يبيت هذه الليلة مقلق الخاطر، وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أحد إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك، فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح فطار عقله بهما وذهب بهما فباعهما لأحد التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتهما، فحملهما التاجر إلى الملك فردهما على زوجته، ثم أنشد الجويني عند ذلك:

ومن قال إن البحر والقطر أشبها ندائهُ فقد أثنى على البحر والقطر

قالوا: واجتاز يوماً في سوق فرأى عند بقال عنابا، فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه بالس، فاشترى الحاجب بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ قال: وبقي منه هذا وأشار إلى ما بقي معه من المال فغضب وقال: من يجد من يشتري منه مثلي تموا له عشرة بوالس.

قالوا: وأهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب فاستحسنه جنكيز خان فوهن أمره عند بعض خواصه وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له، فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالما؟ أعطوه مائتي بالس.

قال وقيل له: إن في هذا المكان كنزا عظيما إن فتحته أخذت منه مالا كثيراً، فقال: الذي في أيدينا يكفينا، ودع هذا يفتحه الناس ويأكلونه فهم أحق به منا، ولم يتعرض له.

قال: واشتهر عن رجل في بلاده يقول: أنا أعرف موضع كنز، ولا أقول إلا للقان، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم فلم يفعل، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق يعني البريد سريعا، فلما حضر إلى بين يديه سأله عن الكنز فقال: إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك، فلما رأى تغير كلامه غضب وقال له: قد حصل لك ما قلت، ورده إلى موضعه سالما ولم يعطه شيئا.

قال الجويني: وهذا غريب.

قال: وأهدى له إنسان رمانة، فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، وأمر له بعدد حبها بوالس ثم أنشد:

فلذاك تزدحم الوفود ببابه مثل ازدحام الحب في الرمان

قال: وقدم عليه رجل كافر يقول: رأيت في النوم جنكيز خان يقول: قل لأبي: يقتل المسلمين، فقال له: هذا كذب، وأمر بقتله.

قال: وأمر بقتل ثلاثة قد قضت «الياسق» بقتلهم، فإذا امرأة تبكي وتلطم، فقال: ما هذه؟ أحضروها، فقالت: هذا ابني، وهذا أخي وهذا زوجي، فقال: اختاري واحداً منهم حتى أطلقه لك، فقالت: الزوج يجيء مثله، والابن كذلك، والأخ لا عوض له، فاستحسن ذلك منها، وأطلق الثلاثة لها.

قال: وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة، وقد اجتمع عنده منهم جماعة، فذكر له إنسان بخراسان فأحضره، فصرع جميع من عنده، فأكرمه وأعطاه، وأطلق له بنتا من بنات المغول حسناء، فمكثت عنده مدة لا يتعرض لها، فاتفق مجيئها زائرة بيت القان فجعل السلطان يمازحها ويقول: كيف رأيت المستعرب؟ فذكرت له أنه لم يقربها، فتعجب من ذلك، وأحضره فسأله عن ذلك، فقال: يا خوند أنا إنما حظيت عندك بالشطارة، ومتى قربتها نقصت منزلتي عندك، فقال: لا بأس عليك، وأحضر ابن عم له وكان مثله، فأراد أن يصارع الأول فقال السلطان: أنتما قرابة ولا يليق هذا بينكما وأمر له بمال جزيل.

قال: ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق، وضرب لهم في ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نشاباً وأخذ سهما أعطاه لواحد منهم فكسره، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها، فقال: هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم، وذلك مثلكم إذا انفردتم واختلفتم.

قال: وكان له عدة أولاد ذكور وإناث، منهم أربعة هم عظماء أولاده، أكبرهم تولى، وهم: تولى، وباتو، وبركة وتركجار، وكان كل منهم له وظيفة عنده.

ثم تكلم الجويني على ملك ذريته إلى زمان هولاكو خان، وهو يقول في اسمه بادشاه زاده هولاكو، وذكر ما وقع في زمانه من الأوابد، والأمور المزعجة كما بسطناه في الحوادث والله أعلم.

السلطان الملك المعظم:

■ عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، ملك دمشق والشام، كانت وفاته يوم الجمعة، سلخ ذي القعدة من هذه السنة، وكان استقلاله بملك دمشق لما توفي أبوه سنة خمس عشرة.

وكان شجاعاً عاقلاً، عالما فاضلا، اشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة، على الحصيري مدرس النورية، وفي اللغة والنحو على تاج الدين الكندي، وكان محفوظه مفصل الزمخشري، وكان يصل من حفظه بثلاثين دينارا، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة يشمل صحاح الجوهري، والجمهرة لابن دريد، والتهذيب للأزهري وغير ذلك، وأمر أن يرتب له مسند الإمام أحمد، وكان يحب العلماء ويكرمهم، ويجتهد في متابعة الخير. ويقول: أنا علي عقيدة الطحاوي، وأوصى عند وفاته أن لا يكفن إلا في البياض، وأن يلحد له، ويدفن في الصحراء ولا يبنى عليه.

وكان يقول: واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالى، وأرجو أن يرحمني بها يعني أنه أبلى بها بلاء حسنا رحمه الله تعالى.

وقد جمع له بين الشجاعة والسماحة والبراعة، والعلم ومحبة أهله، وكان يجيء في كل جمعة إلى تربة والده فيجلس قليلا، ثم إذا ذكر المؤذنون ينطلق إلى تربة عمه صلاح الدين فيصلي فيها الجمعة.

وكان قليل التعاظم، يركب في بعض الأحيان وحده، ثم يلحقه بعض غلمانه سوقا.

وقال فيه بعض أصحابه، وهو محب الدين بن أبي السعود البغدادي.

لئن غودرت تلك المحاسنُ في الثرى بوال فما وجدي عليك ببال

ومذ غبت عني ما ظفرت بصاحبٍ أخي ثقةٍ إلا خطرت ببالي

وملك بعده دمشق ولده الناصر داود بن المعظم، وبايعه الأمراء.

أبو المعالي

■ أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب، الفقيه الشافعي السنجاري، شيخ أديب، فاضل خير، له نظم ونثر ظريف، وله نوادر حسنة، وجاوز التسعين، قد استوزره صاحب حماة في وقت، وله شعر رائق، أورد منه ابن الساعي قطعة جيدة، فمن ذلك قوله:

وهواك ما خطر السلو ببالـه ولأنت أعلم في الغرام بحاله

فمتى وشى واش إليك بأنه سائل هواك فذاك من عُذّاله

أو ليس للكلف المعني شاهد ... من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ستر ... غرامه وصرمت حبل وصاله
يا للعجائب من أسير دابه ... يفدي الطليق بنفسه وبماله

وله أيضا:

لام العواذل في هواك فأكثروا ... هيهات ميعاد السلو المحشر
جهلوا مكانك في القلوب فطوّلوا ... لو أنهم وجدوا كوجدي أقصروا
صبرا على عذب الهوى وعذابه ... وأخو الهوى أبدا يلام ويعذر

أبو القاسم

■ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حمدان الطيبي المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بالثقتية، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب، صنف شرحا للتنبيه، ذكره ابن الساعي.

أبو النجم

■ محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتي: الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد على أبي القاسم بن فضلان ثم أعاد بالنظامية ودرس بغيرها، وكان يشتغل كل يوم عشرين درساً، ليس له دأب إلا الاشتغال، وتلاوة القرآن ليلا ونهاراً، وكان بارعاً كثير العلوم، قد أتقن المذهب والخلاف، وكان يفتي في مسألة الطلاق الثلاث بواحدة، فتغيظ عليه قاضي القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغاني، فلم يسمع منه، ثم أخرج إلى تكريت فأقام بها، ثم استدعي إلى بغداد، فعاد إلى الاشتغال، وأعاده قاضي القضاة نصر بن عبد الرزاق إلى إعادته بالنظامية، وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة إلى أن توفي في هذه السنة رحمه الله تعالى، وهذا ذكره ابن الساعي.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها كانت الحروب كثيرة بين جلال الدين والتتار، كسروه غير مرة، ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة، وقتل منهم خلقاً وأماً لا يحصون، وكان هؤلاء التتار قد انفردوا وعصوا على جنكيز خان فكتب جنكيز خان إلى جلال الدين يقول له: إن هؤلاء ليسوا منا ونحن أبعدناهم ولكن سترى منا ما لا قبل لك به.

وفيها قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدي المسلمين وعبروها وقويت شوكتهم وجاء الانبروز ملك الجزيرة القبرصية ثم سار فنزل عكا فخاف المسلمون من شره وبالله المستعان.

وركب الملك الكامل محمد بن العادل صاحب مصر إلى بيت المقدس الشريف فدخله، ثم سار إلى نابلس فخاف الناصر داود بن المعظم من عمه الكامل، فكتب إلى عمه الأشرف فقدم عليه جريدة، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه، فأجابه الكامل بأني إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه، وحاشى لله أن أحاصر أخي أو ابن أخي، وبعد أن جئت أنت إلى الشام فأنت تحفظها وأنا راجع إلى الديار المصرية، فخشي الأشرف وأهل دمشق إن رجع الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع، وأقاما جميعاً هنالك جزاهما الله خيراً، يحوطان جناب بيت المقدس عن الفرنج لعنهم الله.

واجتمع إلى الملك جماعة من ملوكهم، كأخيه الأشرف وأخيهما الشهاب غازي بن العادل وأخيهم الصالح إسماعيل بن العادل، وصاحب حمص أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين ومحمد بن شيركوه، وغيرهم، واتفقوا كلهم على نزع الناصر داود عن ملك الشام وتسليمها إلى الأشرف موسى لأجل حفظ الشام من الفرنج وسيأتي تنفيذ ذلك في السنة المستقبلة إن شاء الله تعالى.

وفيها عزل الصدر البكري عن حسبة دمشق ومشيخة الشيوخ وولي فيهما اثنان غيره.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وفي أوائل رجب توفي الشيخ الصالح الفقيه أبو الحسن

■ علي بن المراكشي المقيم بالمدرسة المالكيه، ودفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، وكان أول من دفن بها رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائه

استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون، قد صاروا أحزاباً وفرقاً، وقد اجتمع ملوكهم إلى الكامل محمد صاحب مصر، وهو المقيم بنواحي القدس الشريف، فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر، وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، وتبقى بأيديهم بقية البلاد، فتسلموا القدس الشريف، وكان المعظم قد هدم أسواره، فعظم ذلك على المسلمين جداً وحصل بسبب ذلك وهن وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم قدم الملك الكامل فحاصر دمشق وضيق على أهلها فقطع الأنهار ونهبت الحواصل وغلت الأسعار، ولم يزل الجنود حولها حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم، على أن يقيم ملكاً بمدينة الكرك والشوبك ونابلس وقرايا من الغور والبلقاء ويكون الأمير عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم صاحب صرخد، ثم تقايض الأشرف وأخوه الكامل فأخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه حران والرها والرقة ورأس العين والسروج، ثم سار الكامل فحاصر حماة وكان صاحبها الملك المنصور بن تقي الدين عمر قد توفي وعهد بالأمر من بعده إلى أكبر ولده المظفر محمد، وهو زوج بنت الكامل، فاستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قليج أرسلان فحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد، ثم سار فتسلم البلاد التي قايض بها دمشق من أخيه الملك الأشرف كما ذكرنا، وكان الناس بدمشق قد اشتغلوا بعلم الأوائل في أيام الملك ناصر داود وكان يعاني ذلك وقديماً نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال فالله أعلم، فنادى الملك الأشرف بالبلدان أن لا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه، وكان سيف الدين الآمدي مدرساً بالعزيزيه فعزله عنها وبقي ملازماً منزله حتى مات في سنة إحدى وثلاثين كما سيأتي.

وفيها كان الناصر داود قد أضاف إلى قاضي القضاة شمس الدين بن الخويّي القاضي محيي الدين أبا الفضائل يحيى بن محمد بن علي بن الزكي،

فحكم أياماً بالشباك، شرقي باب الكلاسه، ثم صار الحكم بداره، مشاركاً لابن الخوئي.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك المسعود

■ **أقسيس بن الكامل:** صاحب اليمن، وقد ملك مكة سنة تسعة عشر فأحسن بها المعدلة، ونفى الزيدية منها، وأمنت الطرقات والحجاج ولكنه كان مسرفاً على نفسه، فيه عسف وظلم أيضاً، وكانت وفاته بمكة ودفن بباب المعلى.

■ **محمد السبتي النجار:** كان يعده بعضهم من الأبدال.

قال أبو شامة: وهو الذي بنى المسجد غربي دار الوكالة عن يسار المار في الشارع من ماله، ودفن بالجبل. وكان جنازته مشهودة رحمه الله تعالى.

أبو الحسن

■ **علي بن سالم بن يزبك بن محمد بن مقلد العبادي الشاعر من الحديثة،** قدم بغداد مراراً وامتدح المستظهر وغيره وكان فاضلا شاعراً يكثر التغزل.

أبو يوسف

■ **يعقوب بن صابر الحراني: ثم البغدادي المنجنيقي،** كان فاضلا في فنه، وشاعراً مطبقاً لطيف الشعر حسن المعاني، قد أورد له ابن الساعي قطعة صالحة، ومن أحسن ما أورد له قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهي:

هل لمن يرتجي البقاء خلود ... وسوى الله كل شيء يبيد
والذي كان من تراب وإن ... عاش طويلا للتراب يعود
فمصير الأنام طراً إلى ما ... صار فيه آبائهم والجدود
أين حواء أين آدم إذ فا ... تهم الخلد والثوى والخلود؟
أين هابيل أين قابيل إذ هـ ... ـذا لهذا معاند وحسود؟
أين نوح ومن نجى معه بالفلـ ... ـك والعالمون طراً فقيد
أسلمته الأيام كالطفل للمو ... ت ولم يغن عمره الممدود
أين عاد، بل أين جنة عاد ... أم ترى أين صالح وثمود؟
أين إبراهيم الذي شاد بي ... ت الله فهو المعظم المقصود
حسدوا يوسف أخاهم فكادو ... ه ومات الحسود والمحسود
وسليمان في النبوة والملـ ... ـك قضى مثل ما قضى داود
فغدوا بعد ما أطيع لذا الخلـ ... ـق وهذا له الحديد المذاب
وابن عمران بعد آياته التسـ ... ـع وشق البحر انفلاقاً وهود
والمسيح ابن مريم وهو روح الله ... كادت تقضي عليه اليهود
وقضى سيد النبيين والهـا ... دي إلى الحق أحمد المحمود
وبنوه وآله الطاهرو ... ن الزهر صلى عليهم المعبود
ونجوم السماء متناثرات ... بعد حين وللهواء ركود
ولنار الدنيا التي توقد الصخـ ... ـر خمود وللمياه جمود
وكذا للثرى غداة يؤم النا ... س منها تزلزل وهمود
هذه الأبهات تارب وتر ... ب وهواء رطب وماء يرود
سوف تفنى كما فنينا فلا ... يبقى من الخلق والد ووليد
لا الشقي الغوي من نوب الأيا ... م ينجو ولا السعيد الرشيد
ومتى سلمت المنايا سيوفاً ... فالموالي حصيدها والعبيد

وممن توفي فيها:

أبو الفتوح

■ **نصر بن علي البغدادي:** الفقيه الشافعي ويلقب بثعلب، اشتغل في المذهب والخلاف ومن شعره قوله:

جسمي معي غير أن الروح عندكم ... فالجسم في غربة والروح في وطن
فليعجب الناس مني أن لي بدناً ... لا روح فيه ولي روح بلا بدن

أبو الفضل

■ **جبرائيل بن منصور بن هبة الله** بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النعمان بن المنذر المعروف بابن زطينا البغدادي كاتب الديوان بها، أسلم -وكان نصرانياً- فحسن إسلامه، وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة، ومن ذلك قوله: «خير أوقاتكم ساعة صفت لله، وخلصت من الفكرة لغيره والرجاء لسواه وما دمت في خدمة السلطان فلا تغتر بالزمان، اكفف كفك وأصرف طرفك وأكثر صومك وأقلل نومك يؤمنك، واشكر ربك يحمد أمرك.

وقال: زاد السفر مقدّم على رحيله، فاعد الزاد تبلغ بالمعاد المراد.

وقال: إلى متى تتمادى في الغفلة وكأنك قد أمنت عواقب المهلة عمر اللّهو مضى وعمر الشبيبة انقضى، وما حصلت من ربك على ثقة بالرضى وقد انتهى بك الأمر إلى سنّ التخاذل وزمن التكاسل، وما حظيت بطائل.

وقال: روحك لا تخضع وعينك لا تدمع وقلبك لا يخشع ونفسك لا تشبع، وتظلم نفسك وأنت لها تتوجع، وتظهر الزهد في الدنيا وفي المال تطمع، وتطلب ما ليس لك بحق وما وجب عليك من الحق لا تدفع، وتروم فضل ربك وللماعون تمنع، وتعيب نفسك الأمارة وهي عن اللّهو لا ترجع، وتوقظ الغافلين بإنذارك وتتناوم عن سهمك وتهجع، وتخص غيرك بخبرك ونفسك الفقيرة لا تنفع، وتحوم على الحق وأنت بالباطل مولع، وتتعثر في المضايق وطريف النجاة مهيع، وتتهجم على الذنوب وفي المجرمين تشفع، وتركن إلى دار السلامة وأنت بالعطف مروّع، وتحرص على زيادة الإكتساب وحسابك في كفل غيرك يوضع وتظهر القناعة بالقليل وبالكثير لا تشبع، وتعمر الدار الفانية ودارك الباقية خراب بلقع، وتستوطن منزل الرحيل وكأنك إلى ربك لا ترجع، وتظن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب ترفع، وتقدم على الكبائر وعن الصغائر تتورع، وتؤمل الغفران وأنت عن الذنوب لا تقلع وترى الأهوال محيطة بك وأنت في ميدان اللّهو ترتع وتستقبح أفعال الجهال وباب الجهل تقرع، وقد آن لك أن تأنف من التعسف وعن الدنايا تترفع، وقد سار المخفون وتخلفت فماذا تتوقع».

وقد أورد ابن الساعي له شعراً حسناً فمنه:

إن سهرت عينك في طاعة ... فذاك خير لك من النوم
أمسك قد فات بعلاته ... فاستدرك الفائت في اليوم

وله:

إن ربـاً هـداك بعـد ضـلال ... سبل الرشـد مستحق العبادة
فتعبد لـه تجـد منـه عتقـاً ... واستدم فضله بطول الزهادة

وله:

إذا تعففـت عـن حـرام ... عوضـت بـالطيب الحـلال
فـاقنع تجـد في الحـرام حـلا ... فضـلا مـن اللّـه ذي الجـلال

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الأشرف بن العادل وبين جلال الدين بن خوارزم شاه الخوارزمي، وكان سببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة خلاط في الماضي وخربها وشرد أهلها، وحاربه علاء الدين كيقباذ ملك الروم وأرسل إلى الأشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده، فقدم الأشرف في طائفة كبيرة من عسكر دمشق، وانضاف إليهم عسكر بلاد الجزيرة ومن تبقى من عسكر خلاط، فكانوا خمسة آلاف مقاتل صلبية، معهم العدة الكاملة، والخيول الهائلة، فالتقوا بجلال الدين بأذربيجان وهو في عشرين ألف مقاتل، فلم يقم لهم ساعة واحدة، ولا صبر فتقهقر وانهزم واتبعوه على الأثر، ولم يزالوا في طلبهم إلى مدينة خوين وعاد الأشرف إلى مدينة خلاط فوجدها خاوية على عروشها، فمهدها وأطدها، ثم تصالح وجلال الدين وعاد إلى مستقر ملكه بدمشق حرسها اللّه تعالى وإياه.

وفيها تسلم الأشرف قلعة بعلبك من الملك الأمجد بهرام شاه بعد حصار طويل، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل، ثم سار إلى الأشرف بسبب أن جلال الدين الخوارزمي استحوذ على بلاد خلاط وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ونهب أموالا كثيرة فالتقى معه الأشرف واقتتلوا قتالا عظيماً فهزمه الأشرف هزيمة منكرة، وهلك من الخوارزمية خلق كثير، ودقت البشائر في البلاد فرحاً بنصرة الأشرف على الخوارزمية، فإنهم كانوا لا يفتحون بلداً إلا قتلوا من فيه ونهبوا أموالهم، فكسرهم اللّه تعالى. وقد كان الأشرف رأى النبي ﷺ في المنام قبل الوقعة وهو يقول له: يا موسى أنت منصور عليهم. ولما فرغ من كسرهم عاد إلى بلاد خلاط فرمم شعثها وأصلح ما كان فسد منها.

ولم يحج أحد من أهل الشام في هذه السنة ولا في التي قبلها، وكذا فيما قبلها أيضاً، فهذه ثلاث سنين لم يسر من الشام أحد إلى الحج.

وفيها أخذت الفرنج جزيرة ميورقة وقتلوا بها خلقا واسروا آخرين، فقدموا بهم إلى الساحل فاستقبلوا المسلمون فاخبروا بما جرى عليهم من الفرنج.

وممن توفي فيها من الأعيان

زين الأمناء الشيخ الصالح: أبو البركات

■ الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقي الشافعي، سمع الحديث على عميه الحافظ أبي القاسم والصائن وغير واحد، وعمر وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين بنحو من ثلاث سنين، وأقعد في آخر عمره فكان يحمل في محفة إلى الجامع وإلى دار الحديث النورية لإسماع الحديث وانتفع به الناس مدة طويلة، ولما توفي حضر الناس جنازته ودفن عند أخيه الشيخ فخر الدين بن عساكر بمقابر الصوفية رحمهما اللّه تعالى.

الشيخ

■ بيرم الماردييني: كان صالحاً منقطعاً محباً للعزلة عن الناس، وكان مقيماً في الزاوية الغربية من الجامع، وهي التي يقال لها الغزالية، وتعرف بزاوية الدولعي وبزاوية القطب النيسابوري، وبزاوية الشيخ نصر المقدسي، قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، ودفن بسفح قاسيون رحمه اللّه تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل ببلاد الجزيرة مشغول فيها بإصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمي قد أفسده من بلاده، وقد قدمت التتار في هذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر فعاثوا بالفساد يميناً وشمالا، فقتلوا ونهبوا وسبوا على عاداتهم خذلهم اللّه تعالى.

وفيها رتب إمام بمشهد أبي بكر من جامع دمشق وصليت فيه الصلوات الخمس.

وفيها درس الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري الشافعي في المدرسة الشامية الجوانية في جوار المارستان في جمادى الأولى منها.

وفيها درس الناصح بن الحنبلي بالصالحية بسفح الجبل التي أنشأتها الخاتون ربيعة بنت أيوب أخت ست الشام.

وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ علي الحريري بقلعة عزتا.

وفيها كان غلاء شديد بديار مصر وبلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياه السماوية والأرضية فكانت هذه السنة كما قال اللّه تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٥].

وذكر ابن الأثير كلاماً طويلا مضمونه خروج طائفة من التتار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر، وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الإسماعيلية كتبوا إليهم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه وأنه قد عادى جميع الملوك من حوله حتى الخليفة، وأنه قد كسره الأشرف بن العادل مرتين، وكان جلال الدين قد ظهرت منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله، وذلك أنه توفي له غلام خصي يقال له قلج، وكان يحبه، فوجد عليه وجداً عظيماً بحيث إنه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته فراسخ إلى تربته، وأمر أهل البلد أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه فتوانى بعضهم في ذلك فهم بقتلهم حتى تشفع فيهم بعض الأمراء ثم لم يسمح بدفن قلج فكان يحمل معه بمحفة، وكلما أحضر بين يديه الطعام يقول احملوا هذا إلى قلج فقال له بعضهم: أيها الملك إن قلج قد مات، فأمر بضرب عنقه فقتل، فكانوا بعد ذلك يقولون: قبله وهو يقبل الأرض، ويقول هو الآن أصلح مما كان عليه - يعني أنه مريض وليس بميت - فيجد الملك بذلك راحة من قلة عقله ودينه قبحه اللّه تعالى.

فلما جاءت التتار اشتغل بهم وأمر بدفن قلج وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفاً منهم، وجعل كلما سار من قطر لحقوه إليه وخربوا ما اجتازوا به من الأقاليم والبلدان حتى انتهوا إلى الجزيرة وجاوزوها إلى سنجار وماردين وآمد، يفسدون ما قدروا عليه قتلا ونهباً وأسراً، وتمزق

شمل جلال الدين وتفرق عنه جيشه، فصاروا شذر مذر، وبدلوا بالأمن خوفاً، وبالعز ذلا، وبالاجتماع تفرقاً، فسبحان من بيده الملك لا إله إلا هو.

وانقطع خبر جلال الدين فلا يدرى أين سلك، ولا أين ذهب وتمكنت التتار من الناس في سائر البلاد لا يجدون ما يمنعهم ولا من يردعهم وألقى الله تعالى الوهن والضعف في قلوب الناس منهم، كانوا كثيراً يقتلون الناس فيقول المسلم لا بالله لا بالله فكانوا يلعبون الخيل ويغنون ويحاكون الناس لا بالله لا بالله، وهذه طامة عظمى وداهية كبرى فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج الناس في هذه السنة من الشام وكان ممن حج فيها تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح، ثم لم يحج الناس بعد هذه السنة أيضاً لكثرة الحروب والخوف من التتار والفرنج، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها تكامل بناء المدرسة التي بسوق العجم ببغداد المنسوبة إلى إقبال الشرابي، وحضر الدرس بها، وكان يوماً مشهوداً، اجتمع فيه جميع المدرسين والمفتين ببغداد، وعمل بصحنها قباب الحلوى فحمل منها إلى جميع المدارس والربط، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيهاً لهم الجوامك الدارة في كل شهر، والطعام في كل يوم والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرس والمعيدين والفقهاء في ذلك اليوم، وكان وقتاً حسناً تقبل الله تعالى منه.

وفيها سار كل يوم الأشرف أبو العباس أحمد بن القاضي الفاضل في الرسلية عن الكامل محمد صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فأكرم وأعيد معظماً.

وفيها دخل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين صاحب إربل إلى بغداد ولم يكن دخلها قط، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين في وقتين، وكان ذلك شرفاً له غبطه به سائر ملوك الآفاق وسألوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك، فلم يمكنوا لحفظ الثغور، ورجع إلى مملكته معظماً مكرماً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن معطي النحوي** يحيى بن معطي بن عبد النور: النحوي صاحب الألفية وغيرها من المصنفات النحوية المفيدة ويلقب زين الدين، أخذ عن الكندي وغيره، ثم سافر إلى مصر فكانت وفاته بالقاهرة في مستهل ذي الحجة من هذه السنة، وشهد جنازته الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان قد رحل إلى مصر في هذه السنة، وحكى أن الملك الكامل شهد جنازته أيضاً، وأنه دفن قريباً من قبر المزني بالقرافة في طريق الشافعي عن يسرة المار رحمه الله.

■ **الدخوار الطبيب**، واقف الداخورية مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق المحروسة مدرسة لهم.

وكانت وفاته بصفر من هذه السنة، ودفن بسفح قاسيون، وعلى قبره قبة على أعمدة في أصل الجبل شرقي الركنية، وقد ابتلى بستة أمراض متعاكسة منها ريح اللقوة، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

قال ابن الأثير: **وفيها توفي: القاضي أبو غانم**

■ **ابن العديم**: الشيخ الصالح وكان من المجتهدين في العبادة والرياضة، من العاملين بعلمهم، ولو قال قائل إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه، فإنه من جماعة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه.

قال: وفيها أيضاً في الثاني عشر من ربيع الأول توفي صديقنا: **أبو القاسم**

■ **عبد المجيد بن العجمي الحلبي**: وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب، وكان رجلا ذا مروءة غزيرة، وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة، يحب إطعام الطعام، وأحب الناس إليه من أكل من طعامه ويقبل يده، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط، ولا يقعد عن إيصال راحة أو قضاء حاجة، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

قلت وهذا آخر ما وجد من الكامل [١٢/٥٠٥] في التاريخ للحافظ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى.

أبو إسحاق

■ **إبراهيم بن عبد الكريم بن أبي السعادات بن كرم الموصلي**، أحد الفقهاء الحنفيين، شرح قطعة كبيرة من القدوري، وكتب الإنشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ ثم استقال من ذلك، وكان فاضلا شاعراً، من شعره:

دعوه كما شاء الغرام يكون ... فلست وإن خان العهود أخون
ولينوا له في قولكم ما استطعتم ... عسى قلبه القاسي علي يلين
وبثوا صباباتي إليه وكرروا ... حديثي عليه فالحديث شجون
بنفسي الأولى بانوا عن العين خفية ... وحبهم في القلب ليس يبين
وسلوا على العشاق يوم تحملوا ... سيوفاً لها وطف الجفون جفون

■ **المجد الهنسي**: وزير الملك الأشرف ثم عزله وصادره، ولما توفي دفن بتربته التي أنشأها بسفح قاسيون وجعل كتبه فيها وقفاً، وأجرى عليها أوقافاً جيدة دارة رحمه الله تعالى.

جمال الدولة

■ **خليل بن زويزان**: رئيس قصر حجاج، كان كيساً ذا مروءة، له صدقات كثيرة، وله زيارة في مقابر الصوفية من ناحية القبلة، ودفن بتربته عند مسجد فلوس رحمه الله تعالى.

الملك

■ **الأمجد**: واقف المدرسة الأمجدية بالشرف. وفيها كانت وفاته.

■ **بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب** صاحب بعلبك بعده، لم يزل بها حتى قدم الأشرف موسى بن العادل إلى دمشق فملكها في سنة ست وعشرين، فانتزع من يده بعلبك في سنة سبع وعشرين، وأسكنه عنده بدمشق بدار أبيه، فلما كان شهر شوال من هذه السنة عدا عليه مملوك من مماليكه تركي فقتله ليلا، وكان قد اتهمه في بحياصة له وحبسه، فتغلب عليه في بعض الليالي فقتله وقتل المملوك بعده، ودفن الأمجد في تربته التي إلى جانب تربة أبيه في الشرف الشمالي رحمه الله تعالى.

وقد كان شاعراً فاضلا له ديوان شعر، وقد أورد له ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الرائق الفائق، وترجمته في طبقات الشافعية ولم يذكره أبو شامة في الذيل وهذا عجيب منه ومما أورد له ابن الساعي قوله في شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة يقول:

من لي بأهيف قال حين عتبته ... في قطع كل قضيب بان رائق
تحكي شمائله الرشاء إذا انثنى ... ريان بين جداول وحدائق
سرقت غصون البان لين شمائلي ... فقطعتها والقطع حد السارق

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى قوله:

يؤرقني حنين وادكار ... وقد خلت المرابع والديار
تناءى الظاعنون ولي فؤاد ... يسير مع الهوادج حيث ساروا
حنين مثلما شاء التنائي ... وشوق كلما بعد المزار
وليلي بعد بينهم طويل ... فأين مضت ليالي القصار؟
وقد حكم السهاد على جفوني ... تساوى الليل عندي والنهار
سهادي بعد نأيهم كثير ... ونومي بعد ما رحلوا غرار
فمن ذا يستعير لنا عيوناً ... تنام وهل ترى عيناً تعار
فلا ليلي له صبح منير ... ولا وجدي يقال له عثار
وكم من قائل والحي غاد ... يحجب ظعنه النقع المثار
وقوفك في الديار وأنت حي ... وقد رحل الخليط عليك عار

وله:

كم يذهب هذا العمر في الخسران ... ما أغفلني فيه وما أناني
ضيعت زماني كله في لعب ... يا عمر هل بعدك عمر ثاني؟

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال:

كنت من ذنبي على وجل ... زال عني ذلك الوجل
أمنت نفسي بوائقها ... عشت لما مت يا رجل

رحمه الله وعفا عنه

■ **جلال الدين تكش:** وقيل محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وتكش جدهم هو الذي أزال دولة السلجوقية. كانت التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر مذر وتفرقوا عنه أيدي سبا، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض ميافارقين فأنكره لما عليه من الجواهر والذهب، وعلى فرسه فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية -وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً - فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين فاستدعى الفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر والحلي، وأخذ الفرس أيضاً، وكان الملك الأشرف يقول: هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أنّ السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها عزل القاضيان بدمشق: شمس الدين الخوئي وشمس الدين بن سني الدولة، وولي قضاء القضاة عماد الدين بن الخرستاني، ثم عزل في سنة إحدى وثلاثين وأعيد شمس الدين بن سني الدولة كما سيأتي.

وفي سابع عشر شوالها عزل الخليفة المستنصر وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمي، وقبض عليه وعلى أخيه حسن وابنه فخر الدين أحمد بن محمد القمي وأصحابهم وحبسوا واستوزر الخليفة مكانه أستاذ الدار شمس الدين أبا الأزهر، أحمد بن محمد بن الناقد، وخلع عليه خلعة سنية وفرح الناس بذلك.

وقد أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهزور فندب الخليفة صاحب إربل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأضاف إليه عساكر من عنده، فساروا نحوهم فهربت منهم التتار، و لله الحمد، وأقاموا في مقابلتهم مدة شهور ثم تمرض مظفر الدين وعاد إلى بلده إربل، وتراجعت العساكر إلى بلادها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ابن نقطة الحافظ محمد بن عبد الغني بن أبي بكر البغدادي، أبو بكر** بن نقطة الحافظ المحدث الفاضل، صاحب الكتاب النافع المسمى بـ «التقييد» في تراجم رواة الكتب والمشاهير من المحدثين وكان أبوه فقيهاً فقيراً منقطعاً في بعض مساجد بغداد، يؤثر أصحابه بما يحصل له، ونشأ ولده هذا فعُني بعلم الحديث وسماعه والرحلة فيه إلى الآفاق شرقاً وغرباً حتى برز فيه على الأقران، وفاق أهل زمانه، ولد سنة تسع وسبعين وخمسمائة وتوفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من صفر من هذه السنة، رحمهم الله تعالى.

■ **(عبد الله بن عبد الغني المقدسي).**

الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي: كان فاضلا كريماً حيياً، سمع الكثير، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا، فتغيرت أحواله ومات ببستان ابن شكر عند الصالح إسماعيل بن العادل، وهو الذي كفنه ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

أبو علي

■ **الحسن بن أبي بكر المبارك بن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدي ثم البغدادي،** كان شيخاً صالحاً فقيهاً حنفياً فاضلا ذا فنون كثيرة ومن ذلك علم الفرائض والعروض، وله فيه أرجوزة حسنة، انتخب منها ابن الساعي من كل بحر بيتين، وسرد ذلك في تاريخه.

أبو الفتح

■ **مسعود بن إسماعيل بن علي بن موسى السلماسي،** فقيه أديب شاعر، له تصانيف، وقد شرح المقامات والجمل في النحو، وله خطب وأشعار حسنة رحمه الله تعالى.

أبو بكر

■ **محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله الأنصاري بن الشيرجي الدمشقي،** أحد المعدلين بها، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة سمع الحديث وكان يلي ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب، وفوضت إليه أمر أوقافها.

قال السبط: وكان ثقة أميناً كيساً متواضعاً.

قال: وقد وزر ولده شرف الدين للناصر داود مدة يسيرة، وكانت وفاة فخر الدين في يوم عيد الأضحى ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله تعالى وعفا عنه.

■ **حسام بن غزي بن يونس عماد الدين أبو المناقب المحلي المصري، ثم الدمشقي،** كان شيخاً صالحاً فاضلا فقيهاً شافعياً حسن المحاضرة وله أشعار حسنة.

قال أبو شامة: وله في معجم القوصي ترجمة حسنة، وذكر أنه توفي

عاشر ربيع الآخر ودفن في مدافن الصوفية.

قال السبط: وكان مقيماً بالمدرسة الأمينية، وكان لا يأكل لأحد شيئاً ولا للسلطان، بل إذا حضر طعاماً كان معه في كمه شيء يأكله، وكان لا يزال معه ألف دينار على وسطه.

وحكى عنه قال: خلع علي الملك العادل ليلة طيلساناً فلما خرجت مشى بين يدي نفّاط يحسبني القاضي، فلما وصلت باب البريد عند باب سيف خلعت الطيلسان وجعلته في كمي وتباطأت في المشي، فالتفت فلم ير وراءه أحداً فقال لي أين القاضي؟ فأشرت ناحية النورية وقلت ذهب إلى داره، فلما أسرع إلى ناحية النورية هرولت إلى المدرسة الأمينية واسترحت منه.

قال ابن الساعي: كان مولده سنة ستين وخمسمائة، وخلف أموالا كثيرة ورثتها عصبته.

قال: وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس، مع دين وصلاح وورع، وأورد له ابن الساعي قطعاً من شعره فمن ذلك قوله:

قيل لي من هويت قد عبث الشـ ـعر في خدّيه. قلت ما ذاك عاره
جَمْر خدّيه أحرقت عنبر الخا ل فمن ذاك الدخان عذاره

وله:

شوقي إليكم دون أشواقكم لكنه لابد ما يشرحُ
لأني عن قلبكم غائب وأنتم في القلب لن تبرحوا

أبو عبد الله

■ محمد بن علي بن محمد بن الجارود المارانى: الفقيه الشافعي، أحد الفضلاء، ولي القضاء بإربل وكان ظريفاً وخليعاً، وكان من محاسن الأيام، وله أشعار رائقة ومعان فائقة فمن شعره قوله:

مشيب أتى وشباب رحل فحلّ العناء به حيث حل
وعُمر تقضّى بلا طاعة فويحك يا نفسُ ماذا الزلل
ونبئك جسم ألا فارجعي وعودي فقد حان وقت الأجل
وديني الإله ولا تقصري ولا يخدعنك طول الأمل
فمالك عندي غير التقى مستعد ولا صاحب غير حسن العمل]

أبو الثناء

■ محمود بن زاكي بن علي بن يحيى الطائي الرقي نزيل إربل، وولي النظر بها للملك مظفر الدين، وكان شيخاً أديباً فاضلا، ومن شعره قوله:

وأهيف ما الخطي إلا قوامه وما الغصن إلا ما يثنيه لينه
وما الدعص إلا ما تحمل خصره وما النبل إلا ما تريش جفونه
وما الخمر إلا ما يروق ثغره وما السحر إلا ما تكن عيونه
وما الحسن إلا كله فمن الذي إذا ما رآه لا يزيد جنونه

■ ابن معطي النحوي يحيى: ترجمة أبو شامة في السنة الماضية، وهو أضبط لأنه شهد جنازته بمصر.

أما ابن الساعي فإنه ذكره في هذه السنة، وقال: إنه كان حظياً عند الكامل محمد صاحب مصر، وإنه كان قد نظم أرجوزة في القراءات السبع، ونظم ألفاظ الجمهرة، وكان قد عزم على نظم صحاح الجوهري.

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

فيها باشر خطابة بغداد ونقابة العباسيين العدل مجد الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الله المنصوري. وخلع عليه خلعة سنية، وكان فاضلا قد صحب الفقراء والصوفية وتزهد برهة من الزمن، فلما دعي إلى هذا الأمر أجاب سريعاً وأقبلت عليه الدنيا بزهرتها وخدمه الغلمان الأتراك، ولبس لباس المترفين وقد عاتبه بعض تلامذته بقصيدة طويلة وعنفه على ما صار إليه، وسردها ابن الساعي بطولها في تاريخه.

وفيها سار القاضي محيي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي في الرسلية من الخليفة إلى الكامل صاحب مصر، ومعه كتاب هائل فيه تقليده الملك، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصير الدين أحمد بن الناقد، سرده ابن الساعي أيضاً بكامله،، وقد كان الكامل مخيماً بظاهر آمد من أعمال الجزيرة، قد افتتحها بعد حصار طويل وهو مسرور بما نال من ملكها.

وفيها فتحت دار الضيافة ببغداد للحجيج حين قدموا من حجهم، وأجريت عليهم النفقات والكساوي والصلات ولله الحمد والمنة.

وفيها سارت العساكر المستنصرية صحبة الأمير شرف الدين أبي الفضائل إقبال الخاص المستنصري إلى مدينة إربل وأعمالها، وذلك لمرض مالكها مظفر الدين كوكبري بن زين الدين، وأنه ليس له من بعده من يملك البلاد، فحين وصلها الجيش منعه أهل البلد فحاصروه حتى افتتحوه عنوة في السابع عشر من شوال في هذه السنة، وجاءت البشائر بذلك فضربت الطبول ببغداد بسبب ذلك، وفرح أهلها، وكتب التقليد عليها لإقبال المذكور، فرتب فيها المناصب وسار فيها سيرة جيدة، وامتدح الشعراء هذا الفتح من حيث هو، وكذلك مدحوا فاتحها إقبالا، ومن أحسن ما قال بعضهم في ذلك:

يا يوم سابع عشر شوال الذي رزق السعادة أولا وأخيرا
هنيت فيه بفتح إربل مثلما هنيت فيه وقد جلست وزيرا

يعني أن الوزير نصير الدين بن العلقمي، قد كان وزر في مثل هذا اليوم من العام الماضي.

وفي مستهل رمضان من هذه السنة شُرع في عمارة دار الحديث الأشرفية بدمشق، وكانت قبل ذلك داراً للأمير قايماز وبها حمام فهدمت وبنيت الدار عوضها.

وقد ذكر السبط في هذه السنة أن في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ.

قال: وسمع الأشرف صحيح البخاري في هذه السنة على الزبيدي.

قلت: وكذا سمعوا عليه بالدار وبالصالحية.

قال: وفيها فتح الكامل آمد وحصن كيفا ووجد عند صاحبها خمسمائة حرة للفراش فعذبه الأشرف عذاباً أليماً.

قال: وفيها قصد صاحب ماردين وجيش بلاد الروم والجزيرة فقتلوا وسبوا وفعلوا ما لم يفعله التتار بالمسلمين.

ومن توفي فيها من الأعيان المشاهير

■ (علي بن أبي الفرج بن الجوزي).

أبو القاسم علي بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي: كان شيخاً لطيفاً ظريفاً سمع الكثير وعمل صناعة الوعظ مدة، ثم ترك ذلك، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الأخبار والنوادر والأشعار، ولد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكانت وفاته في هذه السنة وله تسع وسبعون سنة.

وقد ذكر السبط وفاة الوزير

■ صفي الدين بن عبد الله بن علي بن شكر في هذه السنة، وأثنى عليه وعلى محبته للعلم وأهله، وأن له مصنفاً سماه البصائر، وأنه تغضب عليه العادل ثم ترضاه الكامل وأعاده إلى وزارته وحرمته، ودفن في مدرسته المشهورة في مصر، وذكر أن أصله من قرية يقال لها دميرة بمصر.

الملك

■ ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكي آقسنقر صاحب الموصل، كان مولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته، ثم حجر عليه فكان لا يصل إلى أحد من الجواري ولا شيء من السراري، حتى لا يعقب، وضيق عليه في الطعام والشراب، فلما توفي جده لأمه مظفر الدين كوكبري صاحب إربل منعه حينئذ من الطعام والشراب ثلاثة عشر يوماً حتى مات كمداً وجوعاً وعطشاً رحمه الله، وكان من أحسن الناس صورة، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكي.

القاضي شرف الدين

■ إسماعيل بن إبراهيم: أحد مشايخ الحنفية، وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابن خالة القاضي شمس الدين بن الشيرازي الشافعي وكلاهما كان ينوب عن ابن الزكي وابن الحرستاني وكان يدرس بالطرخانيه. وبها مسكنه، فلما أرسل إليه المعظم أن يفتي بإباحة نبيذ التمر وماء الرمان امتنع عن ذلك وقال أنا على مذهب محمد بن الحسن في ذلك، والرواية عن أبي حنيفة شاذة، ولا يصح حديث ابن مسعود في ذلك، ولا الأثر عن عمر أيضاً. فغضب عليه المعظم وعزله عن التدريس وولاه لتلميذه الزين بن العتال، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات رحمه الله تعالى.

قال أبو شامة: ومات في هذه السنة جماعة من السلاطين منهم

■ المغيث بن المغيث بن العادل، والعزيز عثمان بن العادل، ومظفر الدين صاحب إربل.

قلت: أما صاحب إربل فهو: الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد، له آثار حسنة وقد عمر الجامع المظفري بسفح قاسيون، وقد كان قد هم بسياقة الماء إليه من ماء برزة فمنعه المعظم من ذلك واعتل بأنه قد يمر على مقابر المسلمين بالسفوح، وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالا هائلا، وكان مع ذلك شهماً شجاعاً فاتكاً بطلا عاقلا عاملا عادلا رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية له مجلداً في المولد النبوي سماه التنوير في مولد السراج النذير، فأجازه على ذلك بألف دينار، وقد طالت مدته في الملك في زمان الدولة الصلاحية، وقد كان محاصراً عكا وإلى هذه السنة محمود السيرة والسريرة.

قال السبط: حكى بعض من حضر سماط المظفر في بعض الموالد أنه مدَّ في ذلك السماط خمسة آلاف رأس شوي. وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى.

قال: وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ويطلق لهم ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلى الفجر، ويرقص بنفسه معهم، وكانت له دار ضيافة للوافدين من أي جهة على أي صفة. وكانت صدقاته في جميع القرب والطاعات على الحرمين وغيرهما، ويستفك من الفرنج في كل سنة خلقاً من الأسارى، حتى قيل إن جملة من استفكه من أيديهم ستون ألف أسير، قالت زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب - وكان زوجه إياها أخوها صلاح الدين لما كان معه على عكا - قالت: كان قميصه لا يساوي خمسة دراهم من خام فعاتبته بذلك فقال: لبسي ثوباً مخمسة وأتصدق بالباقي خير من ألبس ثوباً مثمناً وأدع الفقير المسكين، وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وفي ثمن الأسارى في كل سنة مئتي ألف دينار. وعلى دار الضيافة في كل سنة مائة ألف دينار. وعلى الحرمين والمياه بدرب الحجاز ثلاثين ألف دينار سوى الصدقات السر، رحمه الله تعالى، وكانت وفاته بقلعة إربل، وأوصى أن يحمل إلى مكة فلم يتفق فدفن بمشهد علي.

والملك

■ العزيز بن عثمان بن العادل فهو شقيق المعظم، كان صاحب بانياس وتملك الحصون التي هنالك، وهو الذي بنى الصُّبيبة. وكان عاقلا قليل الكلام مطيعاً لأخيه المعظم، ودفن عنده وكانت وفاته يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه الناعمة من لمها سامحه الله وعفا عنه.

■ ابن عنين الشاعر أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن علي بن محمد بن غالب الأنصاري، المعروف بابن عنين الشاعر.

قال ابن الساعي: أصله من الكوفة وولد بدمشق ونشأ بها، وسافر عنها سنين، فجاب الأقطار شرقاً وغرباً ودخل الجزيرة وبلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند واليمن والحجاز وبغداد، ومدح أكثر أهل هذه البلاد، وحصل أموالا جزيلة.

وكان ظريفاً شاعراً مطيقاً مشهوراً، حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وقد رجع إلى بلدة دمشق فكان بها حتى مات هذه السنة في قول ابن الساعي.

وأما السبط وغيره. فأرخوا وفاته في ثلاث وثلاثين وقد قيل إنه مات في سنة إحدى وثلاثين والله أعلم.

والمشهور أن أصله من حوران مدينة زرع، وكانت إقامته بدمشق في الجزيرة قبلي الجامع، وكان هجاء له قدرة على ذلك وصنف كتاباً سماه مقراض الأعراض، مشتمل على نحو خمسمائة بيت، قل من سلم من الدماشقة من شره، ولا الملك صلاح الدين ولا أخوه العادل، وقد كان يزن بترك الصلاة المكتوبة فالله أعلم.

وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند فامتدح ملوكهم وحصل أموالا جزيلة، وصار إلى اليمن فيقال إنه وزر لبعض ملوكها، ثم عاد في أيام العادل إلى دمشق ولما ملك المعظم استوزره فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله، وكان قد كتب إلى الدماشقة من بلاد الهند:

فعلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يجترم ذنباً ولا سرقا

أنفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان ينفى كل من صدقا

وما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى:

سلطانا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب
والدولعي الخطيب معتكف وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقة وعظ يغرُّ به النـ ـاس وعبد اللطيف محتسب
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب

وقال في السلطان الملك العادل سيف الدين رحمه الله تعالى وعفا عنه:

إن سلطانا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس، فجاءت حمامة خلفها جارح فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمستجيرة به، فأنشأ ابن عنين يقول:

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمع من جناحي خاطف
قرم لواه الجوع حتى ظله يزانه ويكل قلب واجف
من أعلم الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف

الشيخ شهاب الدين

■ **السهروردي**: صاحب عوارف المعارف، عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمُّويه، واسمه عبد الله البكري البغدادي، الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروردي.

شيخ الصوفية ببغداد، كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مراراً، وحصلت له أموال جزيلة فرقها بين الفقراء والمحتاجين، وقد حج مرة وفي صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وكان فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وإعانة للمحتاجين، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، قال مرة في هذا البيت:

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه حديث نجد ولا صبٌّ فجارية

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده:

وجعل يكرُّره ويتواجد، فقام شاب عليه قَباء وكلُوته من الحاضرين، فقال: يا شيخ كم تشطح بالقوم، والله إن فيهم من لا يرضى أن يُجاريك ولا يصل فهمك إلى ما يقول، هلاّ أنشدت:

كما في الصحاب وقد سارت حولهم إلا محبٌّ في الركب محجوب
كأنما يوسف في كل راحلة والحي وفي كل بيت يعقوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب ليعتذر إليه فلم يجده ووجد مكانه حفرة فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت.

وذكر له ابن خلكان أشياء كثيرة من أناشيده وأثنى عليه خيراً وأنه توفي في هذه السنة وله ثلاث وتسعون سنة رحمه الله تعالى.

■ **ابن الأثير مصنف أسد الغابة والكامل: هو الإمام العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير:**

مصنف كتاب أسد الغابة في أسماء الصحابة وكتاب الكامل في التاريخ وهو من أحسنها حوادث، ابتداه من المبتدأ إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وقد كان يتردد إلى بغداد خصيصاً عند ملوك الموصل، ووزر لبعضهم كما تقدم بيانه، وأقام بها في آخر عمره موقراً معظماً إلى أن توفي في شعبان في هذه السنة، عن خمس وسبعين سنة رحمه الله.

وأما أخوه مجد الدين أبو السعادات المبارك فهو مصنف كتاب جامع الأصول وغيره، وأخوهما الوزير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله كان وزيراً للملك الأفضل علي بن الناصر فاتح بيت المقدس، صاحب دمشق كما تقدم، وجزيرة ابن عمر، قيل إنها منسوبة إلى رجل يقال له عبد العزيز بن عمر من أهل برقعيد، وقيل بل هي منسوبة إلى ابنا عمر وهما أوس وكامل ابني عمر ابن أوس الثعلبي، فالله أعلم. حرَّر ذلك القاضي ابن خلكان رحمه الله.

■ **ابن المسوفي الإربلي: مبارك بن أحمد بن مبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب العلامة شرف الدين أبو البركات اللخمي الإربلي**، كان إماماً في علوم كثيرة كالحديث وأسماء الرجال والأدب والحساب، وله مصنفات كثيرة وفضائل غزيرة، وقد بسط ترجمته القاضي شمس الدين بن خلكان في الوفيات [٤/١٤٧]، فأجاد وأفاد رحمهم الله.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

وفيها عمَّر الأشرف مسجد جرَّاح طاهرَ باب الصَّغير.

وفيها قدم رسولُ الأنبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا؛ منها دبٌّ أبيض، شعره مثل شعر الأسد، ذكروا أنه ينزل إلى البحر، فيخرجُ السمك فيأكله، ومنها طاووسٌ أبيض أيضاً.

وفيها كملت عمارةُ القيسارية التي هي قبليُّ النَّحَّاسين، وحوَّل إليها سوقُ الصاغة، وشغر سوق اللؤلؤ الذي كان فيه الصاغة العتيقة عند الحدَّادين.

وفيها جدِّدت الدَّكاكين التي بالزيادة.

قلت: وقد جدِّدت شرقيُّ هذه الصاغة الجديدة قيساريَّتان في زماننا، وسكنها الصُّوَّاغ وتجَّار الذهب والجوهر، وهما حسنتان، والجميع وقف الجامع المعمور.

وفيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم تُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقُرر للجميع من الخبز والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد.

ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوماً مشهوداً، وأمراً محموداً، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الفائقة والقصائد الرائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولا مبسوطاً شافياً كافياً، وقرر لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان , وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ودرس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك ودرس للمالكية

يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضاً، حتى يعين شيخ غيره، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها.

وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين. ثم عزل مدرس الشافعية في الرابع عشر ذي القعدة بقاضي القضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مقبل، مضافاً إلى ما بيده من القضاء، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان، وقد ولي القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها، ثم عزل ثم رضي عنه ثم درس آخر الوقت بالمستنصرية كما ذكرنا، فلما توفي وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

السيف

الآمدي أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الشيخ سيف الدين الآمدي، ثم الحموي ثم الدمشقي، صاحب المصنفات في الأصلين وغير ذلك، من ذلك أبكار الأفكار في الكلام، ودقائق الحقائق في الحكمة، وإحكام الأحكام في أصول الفقه.

وكان حنبلي المذهب فصار شافعياً أصولياً منطقياً جدلياً خلافياً، وكان حسن الأخلاق سليم الصدر كثير البكاء رقيق القلب، وقد تكلموا فيه بأشياء الله أعلم بصحتها، والذي يغلب على الظن أن ليس لغالبها صحة، وقد كانت ملوك بني أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه وإن كانوا لا يحبونه كثيراً، وقد فوض إليه المعظم تدريس العزيزية، فلما ولي الأشرف دمشق عزله عنها ونادى بالمدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفي بدمشق في هذه السنة في صفر، ودفن بتربيته بسفح قاسيون.

وذكر القاضي ابن خلكان أنه اشتغل ببغداد على الشيخ أبي الفتح نصر بن فتيان بن المني الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فأخذ عن ابن فضلان وغيره، وحفظ طريقة الخلاف الشريف وزوائده طريقة أسعد الميهني، ثم انتقل إلى الشام واشتغل بعلوم المعقول، ثم إلى الديار المصرية فأعاد بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى، وتصدر بالجامع الظافري، واشتهر فضله وانتشرت فضائله، فحسده أقوام فسعوا فيه وكتبوا خطوطهم باتهامه بمذهب الأوائل والتعطيل والانحلال، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

فانتقل سيف الدين إلى حماة ثم تحول إلى دمشق فدرس بالعزيزية، ثم عزل عنها ولزم بيته إلى أن مات في هذه السنة، وله ثمانون عاماً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

واقف الركنية الحنفية الأمير الكبير ركن الدين منكورس الحنفي الفلكي: غلام فلك الدين أخي الملك العادل، لأنه وقف الفلكية كما تقدم، وكان هذا الرجل من خيار الأمراء، ينزل في كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده بطوّافةٍ ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة، وكان قليل الكلام كثير الصدقات، وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون ووقف عليها أوقافاً كثيرة وعمل عندها تربة وحين توفي في بقرية جرود حمل إليها رحمه الله تعالى.

الشيخ الإمام العالم رضي الدين أبو داود

■ **سليمان بن المظفر بن غنائم الجيلي الشافعي**، أحد فقهاء الشافعية ببغداد والمفتين بها والمشغلين للطلبة فترة طويلة، له كتاب في المذهب نحو من خمسة عشر مجلداً يحكي به الوجوه الغريبة والأقوال المستغربة وكان لطيفاً ظريفاً، توفي رحمه الله يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ببغداد.

والحافظ أبو الحسن

■ **بن الأثير الشيخ عزُّ الدين أبو الحسن عليُّ ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم، والجزريُّ الموصليُّ**، صاحب التصانيف الفائقة منها كتاب «الكامل في التاريخ» من أحسن الكتب في هذا الفنّ وأبسطها في الحوادث، وأمّا وفياته فليست مبسوطة بسطَ حوادثه، وبالجملة فهو من عيون التواريخ وأمتعها، وله من المصنفات المشهورة.

الشيخ

■ **طَيّ المصري** أقام مدة بالشام له زاوية بدمشق، عند الرحبة التي يباع فيها الصناديق عند دار بني القلانسي شرقي حمام سامة وكان لطيفاً كيسا زاهداً، يتردد إليه الأكابر ودفن بزاويته المذكورة رحمه الله تعالى.

الشيخ

■ **عبد الله الأرمني**: أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد وسكنوا البراري والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد، وممن كانت له الأحوال والمكاشفات والمجاهدات والسياحات في سائر النواحي والجهات، وقد قرأ القرآن في بدايته وحفظ كتاب القدوري على مذهب أبي حنيفة، ثم اشتغل في المعاملات والرياضات، ثم أقام آخر عمره بدمشق حتى مات بها ودفن بسفح قاسيون.

وقد حكي عنه أشياء حسنة ومنها أنه قال اجتزت مرة في السياحة ببلدة فطالبتني نفسي بدخولها فأبيت أن لا أستطعم منها بطعام، ودخلتها فمررت برجل غسال فنظر إلي شزراً فخفت منه وخرجت من البلد هارباً فلحقني ومعه طعام فقال: كل فقد خرجت من البلد فقلت له: وأنت في هذا المقام وتغسل الثياب في الأسواق؟ فقال لا ترفع رأسك وتنظر إلى شيء من عملك، وكن عبداً لله ولو استعملك في الحش فارض به، ثم قال رحمه الله:

ولو قلت لي مت قلت سمعاً وطاعةً ... وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا

وقال اجتزت مرة في سياحتي براهب في صومعته فقال لي: يا مسلم ما أقرب الطرق عندكم إلى الله عز وجل؟ قلت: مخالفة النفس قال فرد رأسه إلى صومعته فلما كنت في مكة زمن الحج إذا برجل يسلم علي عند الكعبة فقلت من أنت؟ فقال: أنا الراهب، قلت بم وصلت إلى هاهنا؟ قال بالذي قلت لي.

وفي رواية أنه قال له: عرضت الإسلام على نفسي فأبت، فعلمت أنه حق فأسلمت وخالفتها، فأفلح وأنجح.

وقال بينا أنا ذات يوم بجبل لبنان إذا حرامية الفرنج فأخذوني فقيدوني وشدوا وثاقي فكنت عندهم في أضيق حال فلما كان النهار شربوا ونساموا، فبينا أنا موثوق إذا حرامية المسلمين قد أقبلوا نحوهم فأنبهتهم فلجئوا إلى مغارة هنالك فسلموا من أولئك المسلمين فقالوا كيف فعلت هذا وقد كان خلاصك على أيديهم فقلت: إنكم أطعمتموني فكان من حق الصحبة أن

لا أغشكم، فعرضوا علي شيئاً من متاع الدنيا فأبيت وأطلقوني.

وحكى السبط قال: زرته مرة وهو ببيت المقدس وكنت قد أكلت سمكاً مالحاً فلما جلست عنده أخذني عطش شديد وإلى جانبه إبريق فيه ماء بارد فجعلت أستحيي منه، فمد يده إلى الإبريق وقد احمر وجهه وناولني وقال خذ، كم تكاسر، فشربت.

وذكر أنه لما ارتحل من بيت المقدس كان سورها قائماً جديداً على عمارة الملك صلاح الدين قبل أن يخربه المعظم، فوقف لأصحابه يودعهم ونظر إلى السور وقال: كأني بالمعاول وهي تعمل في هذا السور عما قريب، فقيل له: معاول المسلمين أو الفرنج؟ فقال بل معاول المسلمين، فكان كما قال.

وقد ذكرت له أحوال كثيرة حسنة.

ويقال إن أصله أرمني وإنه أسلم على يدي الشيخ عبد اللّه اليونيني وقيل: بل أصله رومي من قونية وإنه قدم على الشيخ عبد اللّه اليونيني وعليه برنس كبرانس الرهبان، فقال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين.

وقد كانت أمه داية امرأة الخليفة، وقد جرت له كائنة غريبة فسلمه اللّه بسبب ذلك وعرفه الخليفة فأطلقه.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وستمائة

فيها خرب الملك الأشرف موسى بن العادل خان الزنجاري الذي كان بالعُقيبة فيه خواطئ وخمور ومنكرات متعددة، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمي جامع التوبة، تقبل اللّه تعالى منه.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين

■ **يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الحلبي**، أحد رؤسائها من بيت العلم والسيادة، له علم بالتواريخ وأيام الناس وغير ذلك، وقد سمع الكثير وحدث.

والشيخ شهاب الدين

■ **عبد السلام بن المطهر بن عبد اللّه بن محمد بن عصرون الحلبي** أيضاً، كان فقيهاً زاهداً عابداً كانت له نحو من عشرين سرية، وكان شيخاً يكثر من الجماع، فاعترته أمراض مختلفة فأتلفته ومات بدمشق ودفن بقاسيون، وهو والد قطب الدين وتاج الدين.

والشيخ الإمام العالم صائن الدين أبو محمد

■ **عبد العزيز الجيلي الشافعي** أحد الفقهاء المفتين المشتغلين بالمدرسة النظامية ببغداد، وله شرح على التنبيه للشيخ أبي إسحاق، توفي في ربيع الأول رحمه اللّه تعالى.

والشيخ الإمام العالم الخطيب الأديب أبو محمد

■ **حمد بن حميد بن محمود بن حميد بن أبي الحسن بن أبي الفرج بن مفتاح التميمي الدنيسري**، الخطيب بها والمفتي لأهلها، الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد بالنظامية، ثم عاد إلى بلده المشار إليها، وقد صنف كتباً. وأنشد عنه ابن الساعي سماعاً منه:

روت لي أحاديث الغرام صبابتي بإسنادها عن بانة العلم الفرد
وحدثني مر النسيم عن الحمى عن الدوح عن وادي الغضا عن ربى نجد
بأن غرامي والأسى قد تلازما فلن يبرحا حتى أوسد في لحدي

وقد أرخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ١٦٣] وفاة الشيخ شهاب الدين

■ **السهروردي** صاحب عوارف المعارف في هذه السنة، وذكر أن مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وأنه جاوز التسعين.

وأما السبط فإنما أرخ وفاته في سنة ثلاثين كما تقدم.

قاضي القضاة بحلب أبو المحاسن

■ **يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي الموصلي الشافعي**، كان رجلا فاضلا أديباً مقرئاً ذا وجاهة عند الملوك، أقام بحلب وولي القضاء بها ونظر الأوقاف، وله تصانيف وشعر، توفي في هذه السنة رحمه اللّه تعالى.

■ **ابن الفارض**: ناظم التائية في السلوك على طريقة المتصوفة المنسوبين إلى الاتحاد، هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال، وقد تكلم فيه غير واحد من مشايخنا بسبب قصيدته المشار إليها، وقد ذكر شيخنا أبو عبد اللّه الذهبي في ميزانه [٢١٤/٣] وحط عليه. مات في هذه السنة وقد قارب الستين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

فيها قطع الكامل وأخوه الأشرف الفرات وأصلحا ما كان أفسده جيش الروم من بلادهما، وخرب الكامل قلعة الرها وأحل بدنيسر بأساً شديداً، وجاء كتاب بدر الدين صاحب الموصل بأن التتار أقبلوا بمائة طلب كل طلب بخمسمائة فارس، فرجع الملكان إلى دمشق سريعاً وعاد جيش الروم إلى بلادهما بالجزيرة وأعادوا الحصار كما كان، ورجعت التتار عامهم ذلك إلى بلادهم واللّه تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ **ابن عنين** الشاعر وقد تقدمت ترجمته في سنة ثلاثين.

■ **الحاجري** الشاعر: صاحب الديوان المشهور وهو عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين بن طاشتكين الإربلي شاعر مطبق، ترجمه ابن خلكان وذكر أشياء من شعره كثيرة، وذكر أنه كان صاحبهم وأنه كتب إلى أخيه ضياء الدين عيسى يستوحش منه:

اللّه يعلم ما أبقى سوى رمق مني فراقك يا من قربه الأمل
فابعث كتابك واستودعه تعزية فربما مت شوقاً قبل ما يصل

وذكر له في الخال رحمه اللّه تعالى:

ومهفهف من شعره وجبينه أمسى الورى في ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذي في خده كل الشقيق بنقطة سوداء

■ **ابن دحية**: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن ملال بن بدر أحمد بن دحية بن خليفة الكلبي المغربي السبتي كان قاضيها ثم سار إلى مصر، شيخ الديار المصرية في الحديث، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بها.

قال السبط: وقد كان كابن عنين في ثلب المسلمين والوقيعة فيهم، ويتزيد في كلامه فترك الناس الرواية عنه وكذبوه، وقد كان الكامل مقبلا عليه، فلما انكشف له حاله أخذ منه دار الحديث وأهانه، وتوفي في ربيع

الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر.

وقد قال الشيخ شهاب الدين أبو الشامة: وللشيخ السخاوي فيه أبيات حسنة.

وقال القاضي ابن خلكان بعد سياق نسبه كما تقدم، وذكر أنه كتبه من خطه.

قال: وذكر أن أمه أمة الرحمن بنت أبي عبد الله بن البسام بن موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلهذا كان بخطه ذو النسبين بين دحية والحسين.

قال ابن خلكان: وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها اشتغل ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام ثم إلى العراق واجتاز بإربل سنة أربع وستمائة فوجد ملكها المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعتني بالمولد النبوي، فعمل له كتاب التنوير في مولد السراج المنير وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار.

قال: وقد سمعناه على الملك المعظم في ستة مجالس سنة خمس وعشرون وستمائة.

قلت: وقد وقفت على هذا الكتاب وكتبت منه أشياء حسنة مفيدة.

قال ابن خلكان وكان مولده في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل ست أو سبع وأربعين وخمسمائة، وتوفي في هذه السنة.

وكان أخوه أبو عمرو عثمان قد باشر بعده دار الحديث الكاملية بمصر، وتوفي بعده بسنة.

قلت: وقد تكلم الناس فيه بأنواع الكلام، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث في قصر صلاة المغرب وكنت أود أن أقف على إسناده لنعلم كيف رجاله، وقد أجمع العلماء كما ذكره ابن المنذر وغيره على أن المغرب لا يقصر، والله سبحانه وتعالى يتجاوز عنا وعنه بكرمه.

وقد وقفت على جزء جمعه المحدث المتقن المفيد أبو صادق محمد بن الحافظ أبي الحسين يحيى بن عليّ بن عبد الله القرشيُّ العطارديُّ في ترجمة شيخه أبي الخطّاب بن دحية هذا، جمع فيه أقوال الناس في ثلبه والكلام في مرياه ومنشئه واشتغاله وطلبه، وذكر بعضهم أنه ولي القضاء بسبتة، فالله أعلم، وذكر طعن الناس في ادّعائه نسبه إلى دحية الكلبيّ، وأنه انقطع نسله من بعد ثلاثمائة، وأنشد لابن عنين فيه - قائل البيتين الشهيرين وهما - قوله:

دحيـة لم يعقـب فكـم تفـتري ... إليـه بالبهتـان والإفـك

ما صحّ عند الناس شيءٌ سوى ... أنّـك مـن كلـب بـلا شـك

وإن من أقبح ما رأيته في هذا الجزء ما ذكره عن شيخه الحافظ المؤرّخ ابن النّجار، عن الحافظ عليّ بن المفضّل أنه قال: اجتمعت أنا وابن دحية في مجلس السلطان، فسألني السلطان عن حديث فأجبته فيه، فقال لي: من وراه؟ فلم يحضرني إسناده فانفصلنا، فاجتمع بي ابن دحية وقال لي: يا فقيه، لما سألك السلطان عن إسناد ذاك الحديث، لم لم تذكر له أيَّ إسناد شئت؟ فإنه ومن حضر مجلسه لا يعلمون هل هو صحيح أم لا فعظمت في أعينهم.

فعلمت أنه يتهاون بأمور الدّين، جريءٌ على الكذب.

ثم قال: وحدّثني الفقيه تقيُّ الدين عبيد بن محمد بن عباس الإسعرديُّ، عن شيخنا الفقيه الإمام العالم أوحد الأنام مفتي المسلمين بهاء الدين أبي الحسن عليّ بن هبة الله بن سلامة بن المسلّم اللّخميّ، يعني ابن الجمّيزيّ، أنه قال: كان السلطان الملك الكامل قد خرج إلى الشام، فخرج أبو الخطّاب عمر ابن دحية معه، وولد الشيخ معين الدين بن شيخ الشيوخ، فحضرت صلاة المغرب، فقدّم السلطان ابن دحية فصلّى بهم المغرب، فلمّا أن فرغ من الصلاة، قال ابن شيخ الشيوخ: ما أعلم أحداً من الأئمة يجوّز قصر صلاة المغرب في السّفر.

فقال ابن دحية: كيف لا وقد أخبرنا فلانٌ عن فلان. وسرد إسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قصر المغرب في السفر. فلم يجب ابن شيخ الشيوخ ومكث على حاله.

قلت: هذا وضع فاحشٌ مخالفٌ لما أجمع عليه العلماء، كما ذكره ابن المنذر وغيره، ومثل هذا الإسناد لا يحفظ؛ لأنّ سامعه لم يضبطه، وواضعه لا يقدر على إعادته ثانيا، والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدة، وفيها النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء فاقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم، وقيل إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار.

وفيها استخدم الصالح أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا الخوارزمية الذين تبقوا من جيش جلال الدين وانفصلوا عن الرومي، فقوي جأش الصالح أيوب.

وفيها طلب الأشرف موسى بن العادل من أخيه الكامل الرقة لتكون قوة له وعلفاً لدوابه إذا جاز الفرات مع أخيه في البواكير، فقال الكامل أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بني أمية؟ فأرسل الأشرف الأمير فلك الدين بن المسيري إلى الكامل في ذلك فأغلظ له الجواب وقال: إيش يعمل بالملك؟ يكفيه عشيرته للمغاني وتعلمه لصناعتهم. فغضب الأشرف عند ذلك وبدت الوحشة بينهما، وأرسل الأشرف إلى حماة وحلب وبلاد الشرق فحالف أولئك الملوك على أخيه الكامل، فلو طال عمر الأشرف لأفسد الملك على أخيه، وذلك لكثرة ميل الملوك إليه وشجاعته وشح أخيه الكامل، ولكنه أدركته منيته في أول السنة الداخلة رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ **العزيز بن الظاهر:** صاحب حلب محمد بن السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين فاتح القدس الشريف، وهو وأبوه وابنه الناصر أصحاب ملك حلب من أيام الناصر، وكانت أم العزيز الخاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان حسن الصورة كريماً عفيفاً، توفي وله من العمر أربع وعشرون سنة، وكان مدبر دولته الطواشي شهاب الدين، وكان من أعدل الأمراء رحمه الله تعالى. وقام في الملك بعده ولده الناصر صلاح الدين يوسف، والله سبحانه وتعالى أعلم

صاحب الروم:

■ **كيقباذ الملك علاء الدين** صاحب بلاد الروم، كان من أعدل الملوك

وأحسنهم سيرة، وقد زوجه العادل ابنته وأولدها، وقد استولى على بلاد الجزيرة في وقت وأخذ أكثرها من يد الكامل محمد، وكسر الخوارزمية مع الأشرف موسى رحمهما الله.

■ **الناصح الحنبلي:** في ثالث المحرم توفي الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي، وهم يتنسبون إلى سعد بن عبادة ﷺ، ولد الناصح سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسمع الحديث، وكان يعظ في بعض الأحيان. وقد ذكرنا قبل أنه وعظ في حياة الشيخ الحافظ عبد الغني، وهو أول من درس بالصالحية التي بالجبل، وله بنيت، وله تصانيف. وقد اشتغل على ابن المَنِّي ببغداد، وكان فاضلا صالحاً، وكانت وفاته بالصالحية ودفن هناك رحمه الله.

■ **الكمال بن مهاجر:** التاجر كان كثير الصدقات والإحسان إلى الناس، مات فجأة في جمادى الأولى بدمشق فدفن بقاسيون، واستحوذ الأشرف على أمواله، فبلغت التركة قريباً من ثلاثمائة ألف دينار من ذلك سبحة فيها مائة حبة لؤلؤ، كل واحدة مثل بيضة الحمامة.

الشيخ الحافظ أبو عمرو

■ **عثمان بن دحية:** أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية، كان قد ولي دار الحديث الكاملية حين عزل أخوه عنها، حتى توفي في عامه هذا، وكان نذر في صناعة الحديث أيضاً رحمه الله تعالى.

القاضي

■ **عبد الرحمن التكريتي:** الحاكم بالكرك، ومدرس مدرسة الزبداني، فلما أخذت أوقافها سار إلى القدس ثم إلى دمشق، فكان ينوب بها عن القضاة، وكان فاضلا نزهاً عفيفاً ديناً رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخيه الكامل.

أما ■ **الأشرف موسى بن العادل** باني دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جرّاح، فإنه توفي في يوم الخميس رابع المحرم من هذه السنة، بالقلعة المنصورة، ودفن بها حتى نجزت تربته التي بنيت له شمالي الكلاسة، ثم حول إليها رحمه الله تعالى، في جمادى الأولى، وقد كان ابتداء مرضه في رجب من السنة الماضية، واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحي يخرج العظام من رأسه وهو يسبح الله عز وجل، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض واعتراه إسهال مفرط فخارت قوته فشرع في التهيُّؤ للقاء الله عز وجل، فأعتق مائتي غلام وجارية، ووقف دار فروخشاه التي يقال لها دار السعادة، وبستانه بالنيرب على ابنته، وتصدق بأموال جزيلة، وأحضر له كفناً كان قد أعده من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين. وقد كان رحمه الله تعالى شهماً شجاعاً كريماً جواداً عباً للعلم ولأهله لا سيما أهل الحديث، ومقادسة الصالحية، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح وبالمدينة للشافعية أخرى، وجعل فيها نعل النبي ﷺ الذي ما زال حريصاً على تحصيله من النظام ابن أبي الحديد التاجر وقد كان النظام ضنيناً به فعزم الأشرف أن يأخذ منه قطعة، خوفاً من أن يذهب بالكلية فقدر الله موت ابن أبي الحديد بدمشق فأوصى للملك الأشرف به، فجعله الأشرف بدار الحديث، ونقل إليها كتباً سنية نفيسة، وبنى جامع التوبة بالعُقيبة، وقد كان خاناً للزنجاري فيه من المنكرات شيء كثير، وبنى مسجد القصب وجامع جراح ومسجد دار السعادة، وقد كان مولده في سنة ست وسبعين وخمسمائة، ونشأ بالقدس الشريف بكفالة الأمير فخر الدين عثمان الزنجاري، وكان أبوه يحبه، وكان أخوه المعظم ثم استنابه أبوه على مدن كثيرة منها الرها وحران، ثم اتسعت مملكته حتى ملك خلاط، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة، لا يعرف غير نسائه وجواريه، مع أنه كان يعاني الشراب، وهذا من أعجب الأمور.

حكى السبط عنه قال: كنت يوماً بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال: بالباب امرأة تستأذن، فدخلت فإذا صورة لم أر أحسن منها، وإذا هي ابنة الملك الذي كان بخلاط قبلي، فذكرت أن الحاجب عليّاً قد استحوذ على قرية لها وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكراء، وأنها إنما تقوت من عمل النقوش للنساء فأمرت برد ضيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكنها، وقد كنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدي وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه، ومعها عجوز، فحين قضت شغلها قلت لها انهضي على اسم الله تعالى، فقالت العجوز: يا خوند إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة فقلت: معاذ الله لا يكون هذا. واستحضرت في ذهني ابنتي ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه فقامت وهي تقول بالأرمني: سترك الله مثل ما سترتني، وقلت لها: مهما كان لك من حاجة فأنهيها إلي أقضها لك، فدعت لي وانصرفت، فقالت لي نفسي: ففي الحلال مندوحة عن الحرام، فتزوجها، فقلت: لا والله لا كان هذا أبداً، أين الحياء والكرم والمروءة؟

قال ومات مملوك من مماليكي وترك ولداً ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شباباً، ولا أحلى شكلا منه، فأحببته وقربته، وكان من لا يفهم أمري يتهمني به، فاتفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله، فاشتكى عليه أولياء المقتول، فقلت أثبتوا أنه قتله، فأثبتوا ذلك فحاجفت عنهم مماليكي وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا، ووقفوا لي في الطريق وقالوا قد أثبتنا أنه قتله، فقلت خذوه فتسلموه فقتلوه، ولو طلبوا مني ملكي فداء له لدفعته إليهم، ولكن استحيت من الله تعالى أن أعارض شرعه بحظ نفسي رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ولما ملك دمشق في سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفي من البلد.

وكان البلد به في غاية الأمن والعدل، وكثرة الصدقات والخيرات، كانت القلعة لا تغلق في ليالي رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط، والصالحية وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم، وكان أكثر جلوسه بمسجد أبي الدرداء الذي جدده وزخرفه بالقلعة، وكان ميمون النقيبة ما كسرت له راية قط، وقد استدعى الزبيدي من بغداد حتى سمع هو والناس عليه صحيح البخاري وغيره، وكان له ميل كثير إلى الحديث وأهله.

ولما توفي رحمه الله رآه بعضهم وعليه ثياب خضر وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقال: ما هذا وقد كنت تعاني الشراب في الدنيا؟ فقال ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم وهذه الروح التي كنا نحب بها هؤلاء فهي معهم، وقد صدق رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» [خ(٦١٦٨-٦١٧٠)، م(٢٦٤٠، ٢٦٤١)]

وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح إسماعيل، فلما توفي أخوه ركب في أبهة الملك ومشى الناس بين يديه، وركب إلى جانبه صاحب حمص وعز الدين أيبك المعظمي حامل الغاشية على رأسه، ثم أنه صادر جماعة من الدماشقة الذين قيل عنهم إنهم مع الكامل، منهم العالم تعاسيف

وأولاده ابن مزهر وحبسهم ببصرى، وأطلق الحريري من قلعة عزتا، وشرط عليه أن لا يدخل دمشق، ثم قدم الكامل من مصر وانضاف إليهم الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس، فحاصروا دمشق حصاراً شديداً، وقد حصنها الصالح إسماعيل، وقطع المياه ورد الكامل ماء بردى إلى ثورا، وأحرقت العُقيبة وقصر حجاج، فافتقر خلق كثير واحترق آخرون، وجرت خطوب طويلة، ثم آل الحال في آخر جمادى الأولى إلى أن سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل، على أن له بعلبك وبصرى وسكن الأمر، وكان الصلح بينهما على يدي القاضي محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي اتفق أنه كان بدمشق قد قدم في رسلية من جهة الخليفة إلى دمشق فجزاه الله تعالى خيراً.

ودخل الكامل دمشق وأطلق الفلك بن المسيري من سجن الحيات بالقلعة الذي كان أودعه فيه الأشرف، ونقل الأشرف إلى تربته، وأمر الكامل في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة أئمة الجامع أن لا يصلي أحد منهم المغرب سوى الإمام الكبير، لما كان يقع من التشويش والاختلاف بسبب اجتماعهم بوقت واحد، ولنعم ما فعل رحمه الله.

وقد فعل هذا في زماننا في صلاة التراويح، اجتمع الناس على قارئ واحد وهو الإمام الكبير في محراب المقدم عند المنبر، ولم يبق به إمام حينئذ سوى الذين بالحلبية عند مشهد علي ولو ترك لكان حسناً والله أعلم.

ذكر وفاة الملك الكامل محمد بن العادل

تملك الكامل مدة شهرين ثم أخذه أمراض مختلفة، من ذلك سعال وإسهال ونزلة في حلقه، ونقرس في رجليه، فاتفق موته في بيت صغير من دار القصبة، وهو البيت الذي توفي فيه عمه الملك الناصر صلاح الدين، ولم يكن عند الكامل أحد عند موته من شدة هيبته، بل دخلوا فوجدوه ميتاً رحمه الله تعالى.

وقد كان مولده في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكان أكبر أولاد العادل بعد موت مودود، وإليه أوصى العادل لعلمه بثباته وكمال عقله، ووفور معرفته وقد كان جيد الفهم يحب العلماء ويسألهم أسئلة مشكلة، وله كلام جيد على صحيح مسلم، وكان ذكياً مهيباً ذا بأس شديد، عادلاً منصفاً له حرمة وافرة، وسطوة قوية، ملك مصر ثلاثين سنة كاملة، وكانت الطرقات في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة، لا يتجاسر أحد أن يظلم أحداً، شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيراً لبعض الفلاحين بأرض آمد، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة، فأحضر الجندي وألبسه ثياب الركبدارية، وألبس الركبداري ثياب الجندي، وأمر الجندي أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضي الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب رحمه الله تعالى.

وكانت له اليد البيضاء في رد ثغر دمياط إلى المسلمين بعد أن استحوذ عليه الفرنج لعنهم الله، فرابطهم أربع سنين حتى استنقذه منهم، وكان يوم أخذه له واسترجاعه إياه يوماً مشهوداً، كما ذكرناه مفصلا و لله الحمد والمنّة.

وكانت وفاته في ليلة الخميس الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، ودفن بالقلعة حتى كملت تربته التي بالحائط الشمالي من الجامع ذات الشباك الذي هناك قريباً من مقصورة ابن سنان، وهي الكندية التي عند الحلبية، نقل إليها ليلة الجمعة الحادي والعشرين من رمضان من هذه السنة رحمه الله تعالى.

ومن شعره يستحث أخاه الملك الأشرف من بلاد الجزيرة حين كان محاصراً بدمياط:

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي ... فارحل بغير تقيد وتوقف
واطو المنازل والديار ولا تنخ ... إلا على باب المليك الأشرف
قبل يديه لا عدمت وقل له ... عني بحسن تعطف وتلطف
إن تأت صنوك عن قريب تلقه ... ما بين حد مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... يوم القيامة في عراص الموقف

ذكر ما جرى بعده

كان قد عهد لولده العادل وكان صغيراً بالديار المصرية، وبالبلاد الشامية، ولولده الصالح أيوب ببلاد الجزيرة، فأمضى الأمراء ذلك، فأما دمشق فاختلف الأمراء بها في الملك الناصر داود بن المعظم، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، فكان ميل عماد الدين ابن الشيخ إلى الجواد، وآخرون إلى الناصر، وكان نازلا بدار أسامة، فانتظم أمر الجواد وجاءت الرسالة إلى الناصر أن اخرج من البلد فركب من دار أسامة والعامة من داره إلى القلعة لا يشكون في ولايته الملك، فسلك نحو القلعة فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج، فصرخت العامة: لا.. لا.. لا ، فسار حتى نزل القابون عند وطأة برزة. فعزم بعض الأمراء الأشرفية على مسكه فساق فبات بقصر أم حكيم، وساقوا وراءه فتقدم إلى عجلون فتحصن بها وأمن.

وأما الجواد فإنه ركب في أبهة الملك وأنفق الأموال والخلع على الأمراء.

قال السبط: فرق ستة آلاف ألف دينار وخمسة آلاف خلعة وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطئ واستقر ملكه بدمشق، واجتمع عليه الأمراء الشاميون والمصريون، ورحل الناصر داود من عجلون نحو غزة وبلاد الساحل فاستحوذ عليها، فركب الجواد في طلبه ومعه العساكر الشامية والمصرية، وقال للأشرفية كاتبوه وأطمعوه، فلما وصلت إليه كتبهم طمع في موافقتهم فرجع في سبعمائة راكب إلى نابلس فقصده الجواد وهو نازل على جينين، والناصر على سبسطية فهرب منه الناصر فاستحوذوا على حواصله وأثقاله. فاستغنوا بها وافتقر بسببها فقراً مدقعاً، ورجع الناصر إلى الكرك جريدة قد سلب أمواله وأثقاله، وعاد الجواد إلى دمشق مؤيداً منصوراً.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب حصن كيفا، وتلك النواحي، وعزموا على القبض عليه، فهرب منهم ونهبوا أمواله وأثقاله، ولجأ إلى سنجار فقصده بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليحاصره ويأخذه في قنص إلى الخليفة، وكان أهل الناحية يكرهون مجاورته لتكبره وقوة سطوته، فلم يبق إلى أخذه إلا القليل، فكاتب الخوارزمية واستنجد بهم ووعدهم بأشياء كثيرة، فقدموا إليه الجرائد ليمنعوه من البدر لؤلؤ، فلما أحس بهم لؤلؤ هرب منهم فاستحوذوا على أمواله وأثقاله فوجدوا فيها أشياء كثيرة لا يحد ولا يوصف، ورجع إلى بلده الموصل جريدة خائباً، وسلم الصالح أيوب مما كان فيه من الشدة.

ومن توفي فيها من الأعيان

الخطيب

■ **الدولعي محمد بن زيد بن ياسين الخطيب جمال الدين الدولعي**، نسبة إلى قرية بأصل الموصل، وقد ذكرنا ذلك عند ترجمة عمه عبد الملك بن ياسين الخطيب بدمشق أيضاً، وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة، وقد منعه المعظم في وقت عن الإفتاء فعاتبه السبط، في ذلك، فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك، لكثرة أخطاءه في فتاويه، وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد لا يفارق بيت الخطابة، ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة، وقف مدرسة بجيرون وسبعاً في الجامع. ولما توفي ودفن بمدرسته التي بجيرون ولي الخطابة بعده أخ له وكان جاهلا، ولم يستقر فيها وتولاها الكمال بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النصيبي، وولي تدريس الغزالية الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام.

القاضي شمس الدين

■ **ابن الشيرازي محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن قميل**: الشيخ أبو نصر بن الشيرازي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وسمع الكثير على الحافظ ابن عساكر وغيره، واشتغل في الفقه وأفتى ودرس بالشامية البرانية، وناب في الحكم عدة سنين، وكان فقيهاً عالماً فاضلا كيِّساً حسن الأخلاق عارفاً بالأخبار وأيام العرب والأشعار، كريم الطباع حميد الآثار، وكانت وفاته ليلة الخميس الثالث من جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

القاضي

■ **شمس الدين بن سني الدولة أبو البركات بن يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي** قاضيها، كان عالماً عفيفاً فاضلا عادلا منصفاً نزهاً كان الملك الأشرف يقول: ما ولي دمشق مثله، وقد ولي الحكم ببيت المقدس وناب بدمشق عن القضاة، ثم استقل بالحكم، وكانت وفاته ليلة الأحد السادس ذي القعدة، وصلى عليه بالجامع ودفن بقاسيون وتأسف الناس عليه رحمه الله تعالى وتولى بعده الشيخ شمس الدين بن الخُوَيِّي:

القاضي زين الدين

■ **عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي**، عرف بابن الأستاذ الحلبي قاضيها بعد بهاء الدين بن شداد، وكان رئيساً عالماً فاضلا، حسن الخلق والسمت، وكان أبوه من الصالحين الكبار رحمهم الله تعالى.

الشيخ الصالح المعمر: أبو بكر

■ **محمد بن مسعود بن بهروز البغدادي**، ظهر سماعه من أبي الوقت من سنة خمس عشرة وستمائة فانثال الناس عليه يسمعون منه، وتفرد بالرواية عنه في الدنيا بعد الزبيدي وغيره، توفي ليلة السبت التاسع والعشرين من شعبان رحمه الله تعالى.

■ **الأمير الكبير المجاهد المرابط**:

صارم الدين:

■ **خطلبا بن عبد الله مملوك سركس ونائبه** بعده مع ولده على تبنين وتلك الحصون، وكان كثير الصدقات والإحسان، ودفن مع أستاذه بقباب سركس، وهو الذي بناها بعد أستاذه، وكان خيِّراً قليل الكلام كثير الغزو مرابطاً مدة سنين رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

فيها قبض الملك الجواد على الصفي بن مرزوق وصادره بأربعمائة ألف دينار وحبسه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء. وكان ابن مرزوق محسناً إلى الجواد قبل ذلك إحساناً كثيراً، وسلط الجواد خادماً لزوجته يقال له الناصح فصادر الدماشقة وأخذ منهم نحواً من ستمائة ألف دينار، ومسك الأمير عماد الدين ابن الشيخ الذي كان سبب تمليكه دمشق، ثم خاف من أخيه فخر الدين ابن الشيخ الذي بديار مصر، وقلق من ملك دمشق، وقال إيش أعمل بالملك؟ باز وكلب أحب إلي من هذا. ثم خرج إلى الصيد وكاتب الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما تبع ذلك إلى دمشق، فملك الصالح أيوب دمشق ودخلها في مستهل جمادى الأولى من هذه السنة والجواد بين يديه بالغاشية، ثم حملها المظفر صاحب حماة وكان يوماً مشهوداً ثم نزل الجواد بدار السعادة وندم على ما كان منه، فأراد أن يستدرك الفائت فلم يتفق له وخرج من دمشق والناس يلعنونه بوجهه بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرد إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه، وسار وبقيت في ذمته.

ولما استقر الصالح أيوب في ملك مصر كما سيأتي حبس الناصح الخادم، فمات في أسوأ حالة، من القلة والقمل، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

وفيها ركب الصالح أيوب من دمشق في رمضان قاصداً الديار المصرية ليأخذها من ابن أخيه العادل لصغره، فنزل بنابلس واستولى عليها وأخرجها من يد الناصر داود، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ليقدم عليه ليكون في صحبته إلى الديار المصرية، وكان قد جاء إليه إلى دمشق وبايعه فجعل يسوف به ويعمل عليه ويحالف الأمراء بدمشق ليكون ملكهم، ولا يتجاسر أحد من الصالح أيوب لجبروته أن يخبره، وانقضت السنة وهو مقيم بنابلس يستدعي إليه وهو يماطله.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **جمال الدين الحصيري الحنفي**: محمود بن أحمد العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية بدمشق، ومدرس النورية، أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها، لا سيما في أيام المعظم، كان يقرأ عليه الجامع الكبير، وله عليه شرح، وكان يحترمه ويعظمه ويكرمه، وكان رحمه الله غزير الدمعة كثير الصدقات، عاقلا نزهاً عفيفاً، توفي يوم الأحد ثامن صفر ودفن بمقابر الصوفية تغمده الله برحمته.

توفي وله تسعون سنة، وأول درسه في النورية في سنة إحدى عشرة وستمائة بعد الشرف داود الذي تولاها بعد البرهان مسعود، وأول مدرسيها رحمهم الله تعالى.

الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين علي

■ **ابن حمويه**، كان سبباً في ولاية الجواد دمشق ثم سار إلى مصر فلامه صاحبها العادل بن الكامل بن العادل فقال الآن أرجع إلى دمشق وآمر الجواد بالمسير إليك، على أن تكون له إسكندرية عوض دمشق، فإن امتنع عزلته عنها وكنت أنا نائبك فيها، فنهاه أخوه فخر الدين بن الشيخ عن

تعاطي ذلك فلم يقبل، ورجع إلى دمشق فتلقاه الجواد إلى المصلى وأنزله عنده بالقلعة بدار المسرة، وخادعه عن نفسه ثم دس إليه من قتله جهرة في صورة مستغيث به، واستحوذ على أمواله وحواصله، وكانت جنازته حافلة، ودفن بقاسيون.

الوزير جمال الدين

■ **علي بن جرير**: وزر للأشرف واستوزره الصالح أيوب أياماً، ثم مات عقب ذلك، كان أصله من الرقة، وكان له أملاك يسيرة يعيش منها، ثم آل أمره إلى أن وزر للأشرف بدمشق، وقد هجاه بعضهم، وكانت وفاته بالخوانيق في جمادى الآخرة، ودفن في مقابر الصوفية.

■ **جعفر بن علي بن أبي بركات بن جعفر بن يحيى الهمداني**، راوية السلفي، قدم إلى دمشق صحبة الناصر داود، وسمع عليه أهلها، وكانت وفاته بها ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى، وله تسعون سنة.

الحافظ الكبير زكي الدين: أبو عبد الله بن محمد بن يوسف بن محمد

■ **البرزالي الإشبيلي**، أحد من اعتنى بصناعة الحديث وبرز فيه، وأفاد الطلبة، وكان شيخ الحديث بمشهد ابن عروة، ثم سافر إلى حلب، فتوفي بحماة في رابع عشر رمضان من هذه السنة وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالي، مؤرخ دمشق الذي ذيل على الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى وقدرته.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل مخيم عند نابلس، يستدعي عمه الصالح إسماعيل ليسير إلى الديار المصرية، بسبب أخذها من صاحبها العادل بن الكامل، وقد أرسل الصالح إسماعيل ولده وابن يغمور إلى صحبة الصالح أيوب بنابلس، فهما ينفقان الأموال في الأمراء ويحلفانهم على الصالح أيوب بن الصالح إسماعيل، فلما تم الأمر وتمكن الصالح إسماعيل من مراده أرسل إلى الصالح أيوب يطلب منه ولده ليكون عوضه ببعلبك، ويسير هو إلى خدمته، فأرسله إليه وهو لا يشعر بشيء مما وقع، وكل ذلك عن ترتيب أبي الحسن غزال المتطبب وزير الصالح - وهو الأمين واقف الأمينية ببعلبك - فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر هجم الملك الصالح إسماعيل وفي صحبته أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى دمشق، فدخلاه بغتة من باب الفراديس، فنزل الصالح إسماعيل بداره من درب الشعارين، ونزل صاحب حمص بداره، وجاء نجم الدين بن سلام فهنأ الصالح إسماعيل ورقص بين يديه وهو يقول: إلى بيتك جئت. وأصبحوا فحاصروا القلعة وبها المغيث عمر بن الصالح نجم الدين أيوب، ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج، وهتكوا حرمتها ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث في برج هنالك.

وقال أبو شامة: واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت والدور حول القلعة. ولما وصل الخبر بما وقع إلى الصالح أيوب تفرق عنه أصحابه والأمراء خوفاً على أهاليهم من الصالح إسماعيل، وبقي الصالح أيوب وحده بمماليكه وجاريته أم ولده خليل، وطمع فيه الفلاحون والغوارنة، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك إليه من يأخذه من نابلس مهاناً على بغلة بلا مهماز ولا مقرعة، فاعتقله عنده سبعة أشهر، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب أخاه الصالح أيوب ويعطيه مائة ألف دينار، فما أجابه إلى ذلك، بل عكس ما طلب منه بإخراج الصالح من سجنه والإفراج عنه وإطلاقه مع الجيش يركب وينزل، فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود، وبرز العادل من الديار المصرية إلى بلبيس قاصداً قتال الناصر داود، فاضطرب الجيش عليه واختلفت الأمراء، وقيدوا العادل واعتقلوه في خركاه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم.

فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب وبلاد الجزيرة وبلاد ديار بكر ونصف مملكة مصر، ونصف ما في الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر. قال الصالح أيوب: فأجبت إلى ذلك مكرهاً، ولا يَقْدِر على ما اشترط عليّ ملوك الأرض، وسرنا فأخذته معي خائفاً أن تكون هذه الكائنة من المصريين مكيدة، ولم يكن لي به حاجة، وذكر أنه كان يسكر ويخبط في الأمور ويخالف في الآراء السديدة، فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه عليهم ودخل الديار المصرية سالماً مؤيداً منصوراً مظفراً محبوراً مسروراً، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه. واستقر ملكه بمصر.

وأما الملك الجواد فإنه أساء السيرة في سنجار وصادر أهلها وعسفهم، فكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم - وقد خرج للصيد - فأخذ البلد بغير شيء وصار الجواد إلى عانة، ثم باعها من الخليفة بعد ذلك.

وفي ربيع الأول درس القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي بالشامية البرانية.

وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي خطابة جامع دمشق، وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم ببلد دمشق وغيرها، لأنه حالفه على الصالح أيوب.

قال أبو شامة: وفي حزيران أيام المشمش جاء مطر عظيم هدم كثيراً من الحيطان وغيرها، وكنت يومئذ بالمزة.

ومن توفي فيها من الأعيان

صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين

■ **شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي**، ولاه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات، وهي في غاية الأمن والعدل، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الإهانة، وكانت ملوك بني الأيوب يتقونه لأنه يرى أنه أحق بالأمر منهم، لأن جده هو الذي فتح مصر، وأول من ملك منهم، وكانت وفاته رحمه الله بحمص، وعمل عزاؤه بجامع دمشق عفا الله عنه بمنه.

القاضي

■ **الخُوَيِّي شمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر الخُوَيِّي** قاضي القضاة بدمشق يومئذ، وكان عالماً بفنون كثيرة من الأصول والفروع وغير ذلك، وكانت وفاته يوم السبت بعد ظهر السابع من شعبان، وله خمس وخمسون سنة بالمدرسة العادلية، وكان حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقيها.

له مصنفات منها عروض قال فيه أبو شامة:

أحمد بن الخليل أرشده الـ ـله لما أرشد الخليل بن أحمد

ذاك مستخرج العروض وهذا مظهر السر منه والعود أحمد

وقد ولي القضاء بعد رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي الجيلي مع تدريس العادلية، وكان قاضياً ببعلبك. فأحضره إلى دمشق الوزير أمين الدين الذي كان سامرياً فاسلم، وزر للصالح إسماعيل، واتفق هو وهذا القاضي على أكل أموال الناس بالباطل.

قال أبو شامة ظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال.

قلت: وقد ذكر غيره عنه أنه ربما حضر يوم الجمعة في المشهد الكمالي بالشباك وهو سكران، وأن قناني الخمر كانت تكون على بركة العادلية يوم السبت، وكان يعتمد في التركات اعتماداً سيئاً جداً وقد عامله الله تعالى بنقيض مقصوده، وأهلكه الله على يدي من كان سبب سعادته، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وولي الخطابة وتدريس الغزالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسي خطيب بيت الآبار، ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية، فتلقاه صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمهما الله تعالى.

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيز خان إلى ملوك الإسلام يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم. وعنوان الكتاب: من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب خاقان. وكان مالكتاب ع رجل سلم من أهل أصبهان لطيف الأخلاق، فأول ما ورد على شهاب الدين غازي بن العادل بميافارقين، وقد أخبره بعجائب في أرضهم غريبة، منها أن في البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم في مناكبهم، وأفواههم في صدورهم، يأكلون السمك وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا. وذكر أن عندهم بزراً ينبت منه الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة، ولا يتناسل. ومن ذلك أن بمازندران عيناً يطلع فيها كل ثلاثين سنة خشبة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول نهار فإذا غابت الشمس غابت في العين فلا ترى إلى مثل ذلك الوقت، وأن بعض الملوك احتال ليمسكوها بسلاسل ربطت فيها فغارت وقطعت السلاسل، ثم كانت إذا طلعت ترى فيها تلك السلاسل، وهي إلى الآن كذلك.

قال أبو شامة: وفيها قلت المياه من السماء والأرض، وفسد كثير من الزرع والثمار والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

محيي الدين

■ **ابن عربي: صاحب الفصوص وغيره. محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي**، طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلداً، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، وله كتاب العبادات وديوان شعر رائق، وله مصنفات أخر كثيرة، وأقام بدمشق مدة طويلة قبل وفاته، وكان بنو الزكي لهم عليه اشتمال وبه احتفال ولجميع ما يقوله احتمال.

قال أبو شامة: وله تصانيف كثيرة وكانت عليه سهلة، وله شعر حسن وكلام طويل على طريق التصوف، وكانت له جنازة حسنة، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بن الزكي بقاسيون، وكانت جنازته في الثاني والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال السبط: كان يقول إنه يحفظ الاسم الأعظم، ويقول إنه يعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكان فاضلا في علم التصوف، وله تصانيف كثيرة.

القاضي نجم الدين أبو العباس:

■ **أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي الشافعي، المعروف بابن الحنبلي**، كان شيخاً فاضلا ديناً بارعاً في علم الخلاف، ويحفظ الجمع بين الصحيحين للحميدي، وكان متواضعاً حسن الأخلاق، قد طاف البلدان يطلب العلم ثم استقر بدمشق ودرس بالعذراوية والصارمية والشامية البرّانية وأم الصالح، وناب في الحكم عن جماعة من القضاة إلى أن توفي بها، وهو نائب الرفيع الجيلي، وكانت وفاته يوم الجمعة سادس شوال ودفن بقاسيون.

■ **ياقوت بن عبد الله أمين الدين الرومي**: منسوب إلى ولاء أتابك، قدم بغداد مع رسول صاحب الموصل لؤلؤ.

قال ابن الساعي، اجتمعت به وهو شاب أديب فاضل، يكتب خطاً حسناً في غاية الجودة، وينظم شعراً جيداً، ثم روى عنه شيئاً من شعره، قال وتوفي في جمادى الآخرة محبوساً.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

فيها قصد الملك الجواد أن يدخل مصر ليكون في خدمة الصالح أيوب فلما وصل إلى الرمل توهم منه الصالح أيوب وأرسل إليه كمال الدين ابن الشيخ ليقبض عليه، فرجع الجواد فاستجار بالناصر داود، وكان إذ ذاك بالقدس الشريف، وبعث معه جيشاً فالتقوا مع ابن الشيخ فكسروه وأسروه فوبخه الناصر داود ثم أطلقه، وأقام الجواد في خدمة الناصر حتى توهم منه فقيده وأرسله تحت الحوطة إلى بغداد، فأطلقه بطن من العرب عن قوة فلجأ إلى صاحب دمشق مدة، ثم انتقل إلى الفرنج، ثم عاد إلى دمشق فحبسه الصالح إسماعيل بعزتا إلى أن مات في سنة إحدى وأربعين كما سيأتي.

وفيها شرع الصالح أيوب في بناء المدارس بمصر، وبنى قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئاً كثيراً من بيت المال، وأخذ أملاك الناس وخرب نيفاً

وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة. ثم أخربها الترك في سنة إحدى وخمسين كما سيأتي بيانه.

وفيها ركب الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد صاحب حمص والحلبيون، فاقتتلوا مع الخوارزمية بأرض حران، فكسروهم ومزقوهم كل ممزق، وعادوا منصورين إلى بلادهم، فاصطلح شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين مع الخوارزمية وآواهم إلى بلده ليكونوا من حزبه.

قال أبو شامة: وفيها كان دخول الشيخ عز الدين إلى الديار المصرية فأكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة وقضاء القضاة بمصر، بعد وفاة القاضي شرف الدين المُوقّع ثم عزل نفسه مرتين وانقطع في بيته رحمه الله تعالى وقدس روحه.

قال وفيها توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب والكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان، وكانا فاضلي بلدهما في فنهما.

قلت: أما: الشمس

■ **ابن الخباز: فهو** أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي، الضرير النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز، اشتغل بعلم العربية وحفظ المفصل والإيضاح والتكملة والعروض والحساب، وكان يحفظ المجمل في اللغة وغير ذلك،، وكان شافعي المذهب كثير النوادر والملح، وله أشعار جيدة، وكانت وفاته عاشر رجب وله من العمر خمسون سنة رحمه الله تعالى.

وأما: الكمال بن يونس: فهو

■ **موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العقيلي،** أبو الفتح الموصلي شيخ الشافعية بها، ومدرس بعدة مدارس فيها، وكانت له معرفة تامة بالأصول والفروع والمعقولات والمنطق والحكمة، ورحل إليه الطلبة من البلدان، وبلغ ثمانية وثمانين عاماً، وله شعر حسن. فمن ذلك ما امتدح به البدر لؤلؤ صاحب الموصل وهو قوله:

لئن شَرُفَت أرضٌ بمالك رقّها ... فمملكة الدنيا بكم تتشرف

بقيت بقاء الدهر أمرك نافذ ... وسعيك مشكور وحكمك منصف

كان مولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وتوفي للنصف من شعبان هذه السنة، رحمه الله تعالى.

قال أبو شامة: وفيها توفي بدمشق:

■ **عبد الواحد الصوفي:** الذي كان قساً راهباً في كنيسة مريم سبعين سنة، أسلم قبل موته بأيام، ثم توفي شيخاً كبيراً بعد أن أقام بخانقاه السميساطية أياماً ودفن بمقابر الصوفية، وكانت جنازته حافلة، حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله تعالى.

أبو الفضل

■ **أحمد بن اسفنديار بن الموفق بن أبي علي البوشنجي الواعظ،** شيخ رباط الأرجوانية.

قال ابن الساعي: كان جميل الصورة حسن الأخلاق كثير التودد والتواضع، متكلماً مفوّهاً منطقياً حسن العبارة جيد الوعظ طيب الإنشاد عذب الإيراد، له نظم حسن، ثم ساق عنه قصيدة يمدح الخليفة المستنصر.

أبو بكر

محمد بن يحيى بن المظفر بن علم بن نعيم المعروف بابن الحبير السلامي، شيخ صالح عالم فاضل، كان حنبلياً ثم صار شافعياً، ودرس بعدة مدارس ببغداد للشافعية، وكان أحد المعدلين بها، تولى مباشرات كثيرة، وكان فقيهاً أصولياً عالماً بالخلاف، وتقدم ببلده وعظم كثيراً، ثم استنابه ابن فضلان بدار الحريم، ثم صار من أمره أن درس بالنظامية وخلع عليه ببغلة، وحضر عنده الأعيان، وما زال بها حتى توفي عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

قاضي القضاة ببغداد أبو المعالي

■ **عبد الرحمن بن مقبل بن علي الواسطي الشافعي،** اشتغل ببغداد وحصل وأعاد في بعض المدارس، ثم استنابه قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر في أيام الخليفة الظاهر بن الناصر، ثم ولي قضاء القضاة مستقلا، ثم ولي تدريس المستنصرية بعد موت أول من درس بها محيي الدين محمد بن فضلان، ثم عزل عن ذلك كله وعُيّن لمشيخة بعض الربط. ثم كانت وفاته في هذا العام، وكان فاضلا ديناً متواضعاً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

فيها توفي الخليفة المستنصر بالله وخلافة ولده المستعصم بالله، فكانت وفاة الخليفة أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة، وله من العمر إحدى وخمسون سنة، وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكتم موته حتى كان الدعاء له على المنابر ذلك اليوم، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة.

وكان جميل الصورة حسن السريرة، جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصل من الذهب في بركة في دار الخلافة، فكان يقف على حافتها ويقول: أترى أعيش حتى أملأها، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول أترى أعيش حتى أنفقها كلها.

فكان يبني الربط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من محال بغداد دار ضيافة للفقراء، ولا سيما في شهر رمضان،، وكان يتقصد الجواري اللائي قد بلغن الأربعين فيشترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن، وفي كل وقت يبرز صلاته ألوف متعددة من الذهب، تفرق في محال ببغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم، تقبل الله تعالى منه وجزاه خيراً.

وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث ومارستاناً وحماماً ودار طب، وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفاكهة ما يحتاجون إليه في أوقاته، وأوقف عليها أوقافاً عظيمة حتى قيل إن ثمن التين من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها. ووقف فيها كتباً نفيسة ليس في الدنيا لها نظير، فكانت هذه المدرسة جمالا لبغداد وسائر البلاد.

وقد احترقت في هذه السنة المشهد الذي بسامرا المنسوب إلى علي الهادي والحسن العسكري، وقد كان بناه أرسلان البساسيري في أيام تغلبه على تلك النواحي، في حدود سنة خمسين وأربعمائة، فأمر الخليفة المستنصر بإعادته إلى ما كان عليه، وقد تكلمت الروافض في الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل بارد لا حاصل له، وصنفوا فيه الأخبار وأنشدوا أشعاراً كثيرة لا معنى لها، وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذي لا حقيقة له، فلا عين ولا أثر، ولو لم يبن لكان أجود، وهو الحسن

بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وقبح من يغلو فيهم ويبغض بسببهم من هو أفضل منهم.

وكان المستنصر رحمه الله كريما حليماً رئيساً متوداً إلى الناس، وكان جميل الصورة حسن الأخلاق بهي المنظر عليه نور بيت النبوة ﷺ وأرضاه.

وحكى أنه اجتاز راكباً في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس، من رمضان، فرأى شيخاً كبيراً ومعه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى، فقال: أيها الشيخ لم لا أخذت الطعام من محلتك؟ أو أنت محتاج تأخذ من المحلتين؟ فقال لا والله يا سيدي - ولم يعرف أنه الخليفة - ولكني شيخ كبير، قد نزل بي الوقت وأنا أستحي من أهل محلتي أن أزاحمهم وقت طعامهم، فيشمت بي من كان يبغضني، فأنا ذاهب إلى غير محلتي فآخذ الطعام وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب فأدخل بالطعام إلى منزلي بحيث لا يراني أحد. فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحاً شديداً حتى قيل إنه انشق قلبه من شدة الفرح، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوماً، ثم مات فحُملت الألف دينار إلى الخليفة، لأنه لم يترك وارثاً. وقد أنفق منها ديناراً واحداً، فتعجب الخليفة من ذلك وقال: شيء قد خرجنا عنه لله لا يعود إلينا، تصدقوا بها على فقراء محلته، فرحمه الله تعالى.

وقد خلف من الأولاد ثلاثة، اثنان شقيقان وهما أمير المؤمنين المستعصم بالله الذي ولي الخلافة بعده أبو أحمد عبد الله، والأمير أبو القاسم عبد العزيز وأختهما من أم أخرى كريمة صان الله حجابها.

وقد رثاه الناس بأشعار كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة.

ولم يستوزر أحداً بل أقر أبا الحسن محمد بن محمد القمي على نيابة الوزارة، ثم كان بعده نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد الناقد الذي كان أستاذ دار الخلافة، والله تعالى أعلم بالصواب.

خلافة المستعصم بالله: أمير المؤمنين

وهو آخر خلفاء بني العباس ببغداد وهو الخليفة الشهيد الذي قتله التتار بأمر هلاوو بن تولي ملك التتار بن جنكيز خان لعنهم الله، في ست وخمسين وستمائة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وهو أمير المؤمنين المستعصم بالله الإمام أبو أحمد عبد الله بن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبي نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين الخليفة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله وبقية نسبه إلى العباس في ترجمة جده الناصر.

وهؤلاء الذين ذكرناهم كلهم ولي الخلافة يتلو بعضهم بعضاً، ولم يتفق هذا لأحد قبل المستعصم، أن في نسبه ثمانية ولوا الخلافة نسقاً لم يتخللهم أحد، وهو التاسع رحمه الله تعالى بمنه.

لما توفي أبوه بكرة الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمائة استدعى هو من التاج يومئذ بعد الصلاة فبويع بالخلافة ولقب المستعصم، وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وشهور، وقد أتقن في شبيته تلاوة القرآن حفظاً وتجويداً، وأتقن العربية والخط الحسن وغير ذلك من الفضائل على الشيخ شمس الدين أبي المظفر علي بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية في زمانه، وقد أكرمه وأحسن إليه في خلافته، وكان المستعصم على ما ذكر كثير التلاوة حسن الأداء طيب الصوت، يظهر عليه خشوع وإنابة، وقد نظر في شيء من التفاسير وحل المشكلات، وكان مشهوراً بالخير مشكوراً مقتدياً بأبيه المستنصر جهده وطاقته.

وقد مشت الأمور في أيامه على السداد والاستقامة بحمد الله، وكان القائم بهذه البيعة المستعصمية شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصري، فبايعه أولا بنو عمه وأهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولي الحل والعقد والعامة وغيرهم، وكان يوماً مشهوداً ومجمعاً محموداً ورأياً سعيداً وأمراً حميداً، وجاءت البيعة من سائر الجهات والأقطار والبلدان والأمصار، وخطب له في سائر البلدان، والأقاليم والرساتيق، وعلى سائر المنابر شرقاً وغرباً، بعداً وقرباً، كما كان أبوه أجداده، رحمهم الله أجمعين.

وفيها وقع من الحوادث في هذه السنة أنه كان بالعراق وباء شديد في آخر أيام المستنصر وغلا السكر والأدوية فتصدق الخليفة المستنصر بالله رحمه الله بسكر كثير على المرضى، تقبل الله منه.

وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان أذن الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين لأبي الفرج عبد الرحمن بن محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي - وكان شاباً ظريفاً فاضلا - في الوعظ بباب البدرية، فتكلم وأجاد وأفاد وامتدح الخليفة المستعصم بقصيدة طويلة جليلة فصيحة، سردها ابن الساعي بكاملها، ومن يشابه أباه فما ظلم، والشبل في المخبر مثل الأسد.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الحلبيين والخوارزمية، ومع الخوارزمية شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، فكسرهم الحلبيون كسرة عظيمة منكرة، وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً جداً، ونهبت نصيبين مرة أخرى، وهذه سابع عشر مرة نهبت في هذه السنين فإنا لله وإنا إليه راجعون. وعاد غازي إلى ميافارقين وتفرقت الخوارزمية يفسدون في الأرض صحبة مقدمهم بركات خان، لا بارك الله فيه، وقدم على شهاب الدين غازي منشور بمدينة خلاط فتسلمها وما فيها من الحواصل.

وفيها عزم الصالح أيوب صاحب مصر على دخول الشام فقيل له إن العساكر مختلفة فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدبر مملكتها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ المستنصر بالله: أمير المؤمنين كما تقدم.
والحرمة المصونة الجليلة

■ بركات خاتون بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكية واقفة المدرسة الأتابكية بالصالحية، وكانت زوجة السلطان الملك الأشرف رحمه الله. وفي ليلة وفاتها كانت وقفت مدرستها وتربتها بالجبل قاله أبو شامة. ودفنت بها رحمها الله تعالى وتقبل منها.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

فيها ترددت الرسل بين الصالح أيوب صاحب مصر وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على أن يردّ إليه ولده المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل في قلعة دمشق وتستقر دمشق في يد الصالح إسماعيل، فوقع الصلح على ذلك، وخطب للصالح أيوب بدمشق، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني، وزير الصالح إسماعيل من غائلة هذا الأمر، فقال لمخدومه لا ترد هذا الغلام لأبيه تخرج البلاد من يدك، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد، فعند ذلك أبطل ما كان وقع من الصلح ورد الغلام إلى القلعة، وقطعت الخطبة للصالح أيوب، ووقعت الوحشة بين الملكين، وأرسل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكانت الخوارزمية قد فتحوا في هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدي ملكها ابن علاء الدين، وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع، ويسلطها على الناس، فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذ.

وفيها احتيط على أعوان القاضي الرفيع الجيلي، وضرب بعضهم بالمقارع وصودروا ورسم على القاضي الرفيع بالمدرسة المقدمية داخل باب الفراديس ثم أخرج ليلا وذهب به فسجن بمغارة أفقه من نواحي البقاع، ثم انقطع خبره.

قال أبو شامة: وذكروا أنه توفي لا رحمه الله تعالى، ومنهم من قال أنه ألقي من شاهق، ومنهم من قال خنق، وذلك كله بذي الحجة من هذه السنة.

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه قرئ منشور ولاية القضاء بدمشق لمحيي الدين يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، بالشباك الكمالي من الجامع، كذا قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة.

وزعم السبط أن عزله إنما كان في السنة الآتية، وذكر أن سبب هلاكه أنه كتب إلى الملك الصالح يقول له: إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس. فأنكر الصالح ذلك، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم، فأرسل القاضي يقول فأنا أحقق الوزير وكان الصالح لا يخالف الوزير، فأشار حينئذ على الصالح بعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس، فعزله وكان من أمره ما كان. وفوض أمر مدارسه إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح فعين العادلية للكمال التفليسي، والعذراورية لمحيي الدين بن الزكي الذي ولي القضاء بعده، والأمينية لابن عبد الكافي، والشامية البرانية للتقي الحموي، وتغيب القاضي الرفيع وأسقط عالة شهوده.

قال السبط: أرسله الأمين مع جماعة على بغل يكاف لبعض النصارى إلى مغارة أفقة في جبل لبنان من ناحية الساحل، فأقام بها أياماً ثم أرسل إليه عدلين من بعلبك ليشهدوا عليه ببيع أملاكه من أمين الدولة، فذكرا أنهما شاهداه وعليه تخفيفة وقندورة، وأنه استطعمهما شيئاً من الزاد وذكر أن له ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً، فأطعماه من زوادتهما وشهدا عليه وانصرفا، ثم جاءه داود النصراني فقال له قم فقد أمرنا بحملك إلى بعلبك، فأيقن بالهلاك حينئذ، فقال دعوني أصلي ركعتين، فقال له قم، فقام يصلي فأطال الصلاة فرفسه النصراني فألقاه من رأس الجبل إلى أسفل الوادي الذي هناك فما وصل حتى تقطع، وحكى أنه تعلق ذيله بسن الجبل فما زال داود يرميه بالحجارة حتى ألقاه إلى أسفل الوادي، وذلك عند الشقيف المطل على نهر إبراهيم.

قال السبط: وقد كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأمور الشريعة، يخرج إلى المجلس سكراناً ويحضر الجمعة كذلك، وكانت داره كالحانات فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال وأخذ الموفق الواسطي أحد أمنائه - وكان من أكبر البلايا - أخذ لنفسه من أموال الناس ستمائة ألف درهم، فعوقب عقوبة عظيمة حتى أخذت منه، وقد كسرت ساقه ومات تحت الضرب، فألقي في مقابر اليهود والنصارى، وأكلته الكلاب.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ شمس الدين أبو الفتوح:

■ **عمر بن أسعد بن المنجا التنوخي المعري الحنبلي**، قاضي حران قديماً، ثم قدم دمشق ودرس بالمسمارية وتولى خدماً في الدولة المعظمية، وكانت له رواية عن ابن صابر والقاضيين الشهرزوري وابن أبي عصرون، وكانت وفاته في سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى. وتوفي أخوه العز بعده في ذي الحجة ودفن بمدرسته التي بالجبل رحمه الله تعالى.

الشيخ الحافظ الصالح: تقي الدين أبو إسحاق

■ **إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفيني**، كان يدري الحديث وله به معرفة جيدة، أثنى عليه أبو شامة وصلي عليه بجامع دمشق ودفن بقاسيون رحمه الله.

واقف الكروسية:

■ **محمد بن عقيل بن كروس، جمال الدين محتسب دمشق**، كان كيساً متواضعاً، توفي بدمشق في شوال ودفن بداره التي جعلها مدرسة، وله دار الحديث رحمه الله تعالى وعفا عنه.

الملك الجواد

■ **يونس بن ممدود بن العادل أبي بكر بن أيوب الملك الجواد**، وكان أبوه أكبر أولاد العادل، تقلبت به الأحوال وملك دمشق بعد عمه الكامل محمد بن العادل، وكان في نفسه جيداً محباً للصالحين، ولكن كان في بابه من يظلم الناس وينسب ذلك إليه، فأبغضته العامة وسبوه والجؤوه إلى أن قايض بدمشق الملك الصالح أيوب بن الكامل إلى سنجار وحصن كيفا، ثم لم يحفظهما بل خرجتا عن يده، ثم آل به الحال إلى أن سجنه الصالح إسماعيل بحصن عزتا، حتى كانت وفاته في هذه السنة، ونقل في شوال إلى تربة المعظم بسفح قاسيون، وكان عنده ابن يغمور معتقلا فحوله الصالح إسماعيل إلى قلعة دمشق، فلما ملكها الصالح أيوب نقله إلى الديار المصرية وشنقه مع الأمين غزال وزير الصالح إسماعيل، على قلعة القاهرة، جزاء على صنعهما في حق الصالح أيوب رحمه الله تعالى.

أما ابن يغمور فإنه عمل عليه حتى حول عنه ملك دمشق إلى الصالح إسماعيل. وأما أمين الدولة فإنه منع الصالح من تسليم ولده عمر إلى أبيه فانتقم منهما بهذا، وهو معذور في ذلك.

■ **مسعود بن أحمد بن مسعود بن مازه البخاري** أحد فقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، ولديه فضل غزير قدم بغداد صحبة رسول التتار للحج، فحبس مدة سنين ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات ببغداد في هذه السنة، رحمه الله تعالى.

أبو الحسن

■ **علي بن يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد البطريق بن نصر بن حمدون بن ثابت الأسدي الحلي، ثم الواسطي، ثم البغدادي،** الكاتب الشاعر الشيعي، فقيه الشيعة، أقام بدمشق مدة وامتدح كثيراً من الأمراء والملوك، ومنهم الكامل صاحب مصر وغيره، ثم عاد إلى بغداد فكان يشغل الشيعة في مذهبهم، وكان فاضلا ذكياً جيد النظم والنثر، لكنه مخذول محجوب عن الحق. وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من أشعاره في «الكامل» وغيره.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن العلقمي المشؤوم على نفسه، وعلى أهل بغداد، الذي لم يعصم المستعصم في وزارته، فإنه لم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة، فإنه هو الذي أعان على المسلمين في قضية هولاوو وجنوده قبحه الله وإياهم.

وقد كان ابن العلقمي قبل هذه الوزارة أستاذ دار الخلافة، فلما مات نصر الدين محمد بن الناقد استوزر ابن العلقمي وجعل مكانه في الاستادارية الشيخ محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجوزي، وكان من خيار الناس رحمه الله، وهو واقف الجوزية التي بالنشابين بدمشق تقبل الله منه.

وفيها جعل الشيخ شمس الدين علي بن محمد بن الحسين بن النيار مؤدب الخليفة شيخ الشيوخ ببغداد، وخلع عليه، ووكل الخليفة بهاء الدين عبد الوهاب بن المطهر وكالة مطلقة، وخلع عليه.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستنجد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك، والمنصور صاحب حمص، مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالا شديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، هزمت الفرنج بصلبانها ورواياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الجيوش فنابت كؤوس المنون عن كؤوس الخمور، فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقاً من أمراء المسلمين، وبعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذ يوماً مشهوداً وأمراً محموداً، ولله الحمد.

وقد قال بعض أمراء المسلمين: قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح وغنمت الخوارزمية من الفرنج ممن كان معهم شيئاً كثيراً وأرسل الصالح أيوب إلى دمشق ليحاصرها، فحصنها الصالح إسماعيل وخرب من حولها رباعاً كثيرة، وكسر جسر باب توما فسار النهر فتراجع الماء حتى صار بحيرة من باب توما وباب السلام، فغرق جميع ما كان بينهما من العمران، وافتقر كثير من الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك المغيث

■ **عمر بن الصالح أيوب:** كان الصالح إسماعيل قد أسره وسجنه في برج قلعة دمشق، حين أخذها في غيبة الصالح أيوب. فاجتهد أبوه بكل ممكن في خلاصه فلم يقدر، وعارضه فيه أمين الدولة غزال المسلماني، واقف المدرسة الأمينية التي بعلبك، فلم يزل الشاب محبوساً في القلعة من سنة ثمان وثلاثين إلى ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر من هذه السنة، فأصبح ميتاً في محبسه غماً وحزناً، ويقال إنه قتل فالله أعلم.

وكان من خيار أبناء الملوك، وأحسنهم شكلا، وأكملهم عقلا. ودفن عند جده الكامل في تربته شمالي الجامع، فاشتد حنق أبيه الصالح أيوب على صاحب دمشق.

وممن توفي فيها.

شيخ شيوخ بدمشق: تاج الدين أبو محمد

■ **عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه:** أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له كتاب في ثمانية مجلدات ذكر فيه الأصول، وله السياسة المملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك، وسمع الحديث، وحفظ القرآن، وكان قد بلغ الثمانين، وقيل إنه لم يبلغها، وقد سافر إلى بلاد المغرب في السنة ثلاث وتسعين، واتصل بمراكش عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة، فقدم إلى ديار مصر وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه رحمه الله تعالى.

الوزير

■ **نصير الدين أبو الأزهر:** أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن الناقد البغدادي وزير المستنصر ثم ابنه المستعصم.

كان من أبناء التجار، ثم توصل إلى أن وزر لهذين الخليفتين، وكان فاضلا بارعاً حافظاً للقرآن كثير التلاوة، نشأ في حشمة باذخة، ثم كان في وجاهة هائلة، وقد أقعد في آخر أمره، وهو مع هذا في غاية الاحترام والإكرام، وله أشعار حسنة كثيرة أورد منها ابن الساعي قطعة صالحة، توفي في هذه السنة وقد جاوز الخمسين رحمه الله تعالى.

نقيب النقباء خطيب الخطباء: وكيل الخلفاء أبو طالب

■ **الحسين بن أحمد بن علي بن أحمد بن معين بن هبة الله بن محمد بن علي ابن الخليفة المهتدي بالله العباسي،** كان من سادات العباسيين وأئمة المسلمين، وخطباء المؤمنين، استمرت أحواله على السداد والصلاح، لم ينقطع عن الخطابة ولم يمرض قط حتى كانت ليلة السبت الثاني والعشرين من رجب من هذه السنة، قام في أثناء الليل لبعض حاجاته فسقط على أم رأسه، فسقط من فمه دم كثير وسكت فلم ينطق كلمة واحدة يومه ذلك إلى الليل، فمات وكانت له جنازة حافلة رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

وهي سنة الخوارزمية، وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عمه الصالح إسماعيل أبا الجيش صاحب دمشق، وحرق قصر حجاج، وحكر السماق، وجامع جراح خارج باب الصغير، ومساجد كثيرة، ونصب المنجنيق عند الباب الصغير وعند باب الجابية، ونصب من داخل البلد منجنيقات أيضاً، وترامى

الفريقان وأرسل الصالح إسماعيل إلى الأمير معين الدين بن الشيخ بسجادة وعكاز وإبريق وأرسل يقول: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بمحاصرة الملوك، فأرسل إليه المعين بزمر وجنك وغلالة حرير أحمر وأصفر، وأرسل يقول له: أما السجادة فإنها تصلح لي، وأما فهذا أولى بك.

ثم أصبح ابن الشيخ فاشتد الحصار بدمشق، وأرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق قصر والده العادل، وامتد الحريق في زقاق الرمان إلى العُقيبة فاحترقت بأسرها، وقطعت الأنهار وغلت الأسعار، وأخفيت الطرق وجرى بدمشق أمور بشعة جداً، لم تتم عليها قط، وامتد الحصار شهوراً من هذه السنة إلى جمادى الأولى، فأرسل أمين الدولة يطلب من ابن معين الدين ابن الشيخ شيئاً من ملابسه، فأرسل إليه بفرجية وعمامة وقميص ومنديل، فلبس ذلك الأمين وخرج إلى معين الدين، فاجتمع به بعد العشاء طويلا، ثم عاد ثم خرج مرة أخرى فاتفق الحال على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويسلم دمشق إلى الصالح أيوب فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجاً إلى بعلبك ودخل معين الدين في دار أسامة، فولى وعزل وقطع ووصل، وفوض قضاء القضاة إلى صدر الدين بن سني الدولة، وعزل القاضي محيي الدين بن الزكي، واستناب ابن سني الدولة التفليسي الذي ناب لابن الزكي والعزيز السنجاري، وأرسل معين الدين بن الشيخ أمين الدولة غزال بن المسلماني وزير الصالح إسماعيل تحت الحوطة إلى الديار المصرية.

وأما الخوارزمية فإنهم لم يكونوا حاضرين وقت الصلح، فلما علموا بوقوع الصلح غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها وساروا نحو بلاد الشرق، وكاتبوا الصالح إسماعيل فحالفوه على الصالح أيوب، ففرح بذلك ونقض الصلح الذي كان وقع منه، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق، وجاء إليهم الصالح إسماعيل من بعلبك فضاق الحال على الدماشقة فعدمت الأقوات وغلت الأسعار جداً، حتى إنه بلغ ثمن الغرارة ألف وستمائة، وقنطار الدقيق بسبعمائة، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم، ورطل اللحم بسبعة وبيعت الأملاك بالدقيق، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات، وتماوت الناس في الطرقات وعجزوا عن التغسيل والتكفين والإقبار، فكانوا يلقون موتاهم في الآبار، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الأيام توفي الشيخ

■تقي الدين بن الصلاح، شيخ دار الحديث وغيرها من المدارس، فما أخرج من باب الفرج إلا بعد جهد جهيد، ودفن بالصوفية رحمه الله

قال ابن السبط: ومع هذا كانت الخمور دائرة والفسق ظاهراً، والمكوس بحالها.

وذكر الشيخ شهاب الدين أن الأسعار غلت في هذه السنة جداً، وهلك الصعاليك بالطرقات، كانوا يسألون لقمة ثم صاروا يسألون لبابة ثم تنازلوا إلى فلس يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها، كالدجاج قال: وأنا شاهدت ذلك. وذكر تفاصيل الأسعار وغلاءها في الأطعمة وغيرها، ثم زال هذا كله في آخر السنة بعد عيد الأضحى ولله الحمد.

ولما بلغ الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤوا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل، كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فاستماله إليه وقوي جانب نائب دمشق معين الدين حسن بن الشيخ، ولكنه توفي في رمضان من هذه السنة كما سيأتي في الوفيات.

ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع في جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية، وحصارهم إياها، فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا من غائلة ذلك، وقالوا دمشق ما تفوت، والمصلحة قتاله عند بلده، فساروا إليه عند بحيرة حمص، وأرسل الناصر داود جيشه إلى الصالح إسماعيل مع الخوارزمية، وساق جيش دمشق فانضافوا إلى صاحب حمص، والتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص، وكان يوماً مشهوداً قتل فيه عامة الخوارزمية وقتل ملكهم بركات خان، وجيء برأسه على رمح، فتفرق شملهم وتمزقوا شذر مذر، وساق المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فتسلمها الصالح أيوب، وجاء إلى دمشق فنزل ببستان سامة خدمة للصالح أيوب، ثم حدثته نفسه بأخذها فاتفق مرضه، فمات رحمه الله في السنة الآتية، ونقل إلى حمص، فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنين، وقام من بعده فيها ابنه الأشرف مدة سنتين، ثم أخذت منه على ما سيأتي وتسلم نواب الصالح أيوب بعلبك وبصرى، ولم يبق بيد الصالح إسماعيل بلد يأوي إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية، وسار هو فاستجار بالملك الناصر بن عبد العزيز بن الظاهر غازي صاحب حلب، فآواه وأكرمه وقال الأتابك لؤلؤ الحلبي لابن أستاذه الناصر، وكان شاباً صغيراً: انظر إلى عاقبة الظلم.

وأما الخوارزمية فإنهم ساروا إلى ناحية الكرك فأكرمهم الناصر داود صاحبها، وأحسن إليهم وصاهرهم وأنزلهم بالصلت فأخذوا معها نابلس، فأرسل إليهم الملك الصالح أيوب جيشاً مع فخر الدين بن الشيخ فكسرهم على الصلت وأجلاهم عن تلك البلاد، وحاصر الناصر بالكرك وأهانه غاية الإهانة، وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخل دمشق في أبهة عظيمة، وأحسن إلى أهلها، وتصدق على الفقراء والمساكين، وسار إلى بعلبك وإلى بصرى وإلى صرخد، فتسلمها من صاحبها عز الدين أيبك المعظمي، وعوضه عنها ثم عاد إلى مصر مؤيداً منصوراً مسروراً. وهذا كله في السنة الآتية ولله الحمد والمنة

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيوش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسروهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم خوفاً من غائلة مكرهم وعملا بقوله ﷺ «اتركوا الترك ما تركوكم» [د(٤٣٠٢)،س(٣١٧٦)].

وفي هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الأبنية الغريبة العجيبة ما يحار الناظر وقد قيل إن ذلك من بناء الجن، وأورد صفته ابن الساعي في تاريخه.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

الشيخ تقي الدين

■ ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشيخ الإمام العلامة، مفتي الشام ومحدثها، الشهرزوري ثم الدمشقي، سمع الحديث ببلاد الشرق وتفقه هنالك بالموصل وحلب وغيرها، وكان أبوه مدرساً بالأسدية بحلب، ووافقها أسد الدين شيركوه بن شاذي، وقدم الشام وهو في عداد الفضلاء الكبار. وأقام بالقدس الشريف مدة ودرس بالصلاحية، ثم تحول منه إلى دمشق، ودرس بالرواحية ثم ثم بالشامية الجوانية، بدار الحديث الأشرفية، وهو أول من وليها من شيوخ الحديث، وهو الذي صنف كتاب وقفها، وقد صنف كتباً كثيرة مفيدة في علوم الحديث، والفقه

وله تعاليق حسنة على الوسيط وغيره من الفوائد التي يرحل إليها.

وكان ديناً زاهداً ورعاً ناسكاً، على طريقة السلف الصالح، كما هي طريقة متأخري أكثر المحدثين، مع الفضيلة التامة في فنون كثيرة، ولم يزل على طريقة جيدة حتى كانت وفاته بمنزله في دار الحديث الأشرفية ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وصلي عليه بجامع دمشق وشيعه الناس إلى داخل باب الفرج، ولم يمكنهم البروز لظاهره لحصار الخوارزمية، وما صحبه إلى جبانة الصوفية إلا نحو العشرة رحمه الله تعالى وتغمده برضوانه.

وقد أثنى عليه القاضي شمس الدين بن خلكان وكان من شيوخه.

وقال السبط أنشدني الشيخ تقي الدين ابن الصلاح من لفظه رحمه الله:

أحذر من الواوات أربعة ... فهن من الحتوف
واو الوصية والوديعة ... والوكالة والوقوف

وحكى ابن خلكان عنه أنه قال: ألهمت في المنام هؤلاء الكلمات: ادفع المسألة ما وجدت التجمل يمكنك فإن لكل يوم رزقاً جديداً، والإلحاح في الطلب يذهب البهاء، وما أقرب الصنيع من الملهوف، وربما كانت الغِيَر نوعاً من آداب الله، والحظوظ مراتب فلا تعجل على ثمرة قبل أن تدرك فإنك ستنالها في أوقاتها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعاً، ويغشاك القنوط.

■ **ابن النجار الحافظ صاحب التاريخ: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن بن النجار، أبو عبد الله البغدادي الحافظ الكبير،** سمع الكثير ورحل شرقاً وغرباً، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وشرع في كتابة التاريخ وعمره خمس عشرة سنة، والقراءات وقرأ بنفسه على المشايخ كثيراً حتى حصل نحواً من ثلاثة آلاف شيخ، من ذلك نحو من أربعمائة امرأة، وتغرب ثمانياً وعشرين سنة، ثم جاء بغداد وقد جمع أشياء كثيرة، من ذلك القمر المنير في المسند الكبير يذكر لكل صحابي ما روى. وكنز الأيام في معرفة السنن والأحكام والمختلف والمؤتلف والسابق واللاحق والمتفق والمفترق وكتاب الألقاب، ونهج الإصابة في معرفة الصحابة والكافي في أسماء الرجال وغير ذلك مما لم يتم أكثره وله كتاب الذيل على تاريخ مدينة السلام، في ستة عشر مجلداً، وله أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس، وغرر الفوائد في خمسة مجلدات، وأشياء كثيرة جداً سردها ابن الساعي في ترجمته.

وذكر أنه لما عاد إلى بغداد عرض عليه الإقامة في المدارس فأبى وقال: معي ما أستغني به عن ذلك فاشترى جارية وأولدها وأقام برهة ينفق مدة على نفسه من كسبه، ثم احتاج إلى أن نزل محدثاً في جماعة المحدثين بالمدرسة المستنصرية حين وضعت، ثم مرض شهرين وأوصى إلى ابن الساعي في أمر تركته.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس من شعبان من هذه السنة، وله من العمر خمس وسبعون سنة وصلي عليه بالمدرسة الناظمية، وشهد جنازته خلق كثير وكان ينادي حول جنازته هذا حافظ حديث رسول الله ﷺ، الذي ينفي الكذب عنه. ولم يترك وارثاً، وكانت تركته عشرين ديناراً وثياب بدنه، وأوصى أن يتصدق بها، ووقف خزانتين من الكتب بالنظامية تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم، وقد أثنى عليه الناس ورثوه بمرات كثيرة، سردها ابن الساعي في آخر ترجمته.

الحافظ

■ **ضياء الدين المقدسي: صاحب «الأحكام» ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد بن عبد الرحمن المقدسي.**

سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف وألف كتباً مفيدة حسنة كثيرة الفوائد، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية، وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل، وله فضائل الأعمال وغير ذلك من الكتب الحسنة الدالة على حفظه واطلاعه وتضلعه من علوم الحديث متناً وإسناداً.

وكان رحمه الله في غاية العبادة والزهادة والورع والخير، وقد وقف كتباً كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التي وقفها على أصحابها من أهل الحديث والفقهاء، وقد وقفت عليها أوقاف أخر كثيرة بعد ذلك.

الشيخ

■ **علم الدين أبو الحسن السخاوي علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري، ثم الدمشقي شيخ القراء** بدمشق، ختم عليه الوف الناس، وكان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته، وله شرح المفصل وله تفاسير وتصانيف كثيرة، ومدائح في رسول الله ﷺ وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة الإقراء بتربة أم الصالح، وبها كان مسكنه وبه توفي ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون.

وذكر القاضي ابن خلكان أن مولده سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وذكر من شعره قوله:

قالوا غداً نأتي ديار الحمى ... وينزل الركب بمغناهم
وكل من كان مطيعاً لهم ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي ... بأي وجه أتلقاهم
قالوا ألیس العفو من شأنهم ... لا سيما عمن ترجاهم

■ **ربيعة خاتون واقفة الصاحبة بقاسيون ربيعة خاتون بنت أيوب: أخت السلطان صلاح الدين،** زوجها أخوها أولا بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون التي كانت زوجة الملك نور الدين واقفة الخاتونية الجوانية، والخانقاه، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل، فأقامت عنده بإربل أزيد من أربعين سنة حتى مات، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار العقيقي حتى كانت وفاتها في هذه السنة وقد جاوزت الثمانين، ودفنت بقاسيون، وكانت في خدمتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة، ولها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة، ووقفت أمة اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهي الآن شرقي الرباط الناصري، ثم لما ماتت الخاتون وقعت العالمة في المصادرات وحبست مدة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص، وسافرت معه إلى الرحبة وتل باشر، ثم توفيت في سنة ثلاث وخمسون، ووجد لها بدمشق ذخائر كثيرة وجواهر ثمينة، تقارب ستمائة ألف درهم، غير الأملاك والأوقاف رحمها الله تعالى.

■ **معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ: وزير الصالح نجم الدين أيوب،** أرسله إلى دمشق فحاصرها مع الخوارزمية أول الأمر حتى أخذها من يد الصالح إسماعيل، وأقام بها نائباً من جهة الصالح أيوب، ثم مالأ الخوارزمية مع الصالح إسماعيل عليه فحاصروه بدمشق، ثم كانت وفاته

في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، عن ست وخمسين سنة، فكانت مدة ولايته بدمشق أربعة أشهر ونصف. وصلي عليه بجامع دمشق، ودفن بقاسيون إلى جانب أخيه عماد الدين.

وفيها كانت وفاة القليجية الحنفية. وهو الأمير:

■ سيف الدين بن قليج: ودفن بتربته التي بمدرسته المذكورة، التي كانت سكنه بدار فلوس تقبل الله تعالى منه.

وخطيب الجبل

■ شرف الدين عبد الله ابن الشيخ أبي عمر رحمه الله.

والسيف

■ أحمد بن عيسى ابن الإمام موفق الدين بن قدامة.

وفيها توفي إمام الكلاسة الشيخ تاج الدين أبو الحسن

■ محمد بن أبي جعفر مسند وقته، وشيخ الحديث في زمانه رواية وصلاحاً رحمه الله تعالى.

والمحدثان الكبيران الحافظان المفيدان شرف الدين

■ أحمد بن الجوهري

وتاج الدين

■ عبد الجليل الأبهري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى، ثم في جمادى الآخرة كسر فخر الدين بن الشيخ الخوارزمية على الصلت كسرة فرق بقية شملهم، ثم حاصر الناصر بالكرك ورجع عنه إلى دمشق، وقدم الصالح أيوب إلى دمشق في ذي القعدة فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن المذكورة، وانتزع صرخد من يد عز الدين أيبك، وعوضه عنها، وأخذ الصلت من الناصر داود بن المعظم وأخذ حصن الصُّبيبة من السعيد بن العزيز بن العادل، وعظم شأنه جداً، وزار في رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بإعادة أسواره أن تعمر كما كانت في الدولة الناصرية، فاتح القدس، وأن يصرف الخراج وما يتحصل من غلات بيت المقدس في ذلك، وإن عاز شيئاً صرفه من عنده.

وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذي للنصارى تخبر بأنه أباح دم الأنبرور ملك الفرنج لتهاونه في قتال المسلمين، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه، فلما انتهوا إليه كان قد استعد لهم وأجلس مملوكاً له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه، فعند ذلك أخذهم الأبدور فصلبهم على باب قصره بعد ما ذبحهم وسلخهم وحشى جلودهم تبناً، فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله بينهم الخلاف بسبب ذلك، وله الحمد والمنة وبه التوفيق والصحة.

وفيها هبت ريح عاصفة شديدة بمكة في يوم الثلاثاء من عشر ربيع الآخر، فألقت ستارة الكعبة المشرفة، وكانت قد عتقت، فإنها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج في تلك السنين من ناحية الخليفة، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد، وكان هذا فألاً على زوال دولة بني العباس، ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى. فاستأذن نائب اليمن عمر بن رسول شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة في أن يكسو الكعبة، فقال لا يكون هذا إلا من مال الخليفة، ولم يكن عنده مال فاقترض ثلاثمائة دينار واشترى ثياب قطن وصبغها سواداً وركب عليها طرازاتها العتيقة وكسى بها الكعبة ومكثت الكعبة ليس عليها كسوة إحدى وعشرين ليلة.

وفيها فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي بدار الوزارة، وكانت في نهاية الحسن، ووضع فيها من الكتب النفيسة والنافعة شيء كثير، وامتدحها الشعر بأبيات وقصائد حساناً.

وفي أواخر ذي الحجة ظهر الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين ولديه الأميرين أبا العباس أحمد، وأبا الفضائل عبد الرحمن، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرة، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة، وكان ذلك وداعاً لمسرات بغداد وأهلها في ذلك الزمان.

وفيها احتاط الناصر داود صاحب الكرك على الأمير عماد الدين داود بن موسك بن حسكو، وكان من خيار الأمراء الأجواد الأمجاد، واصطفى أمواله كلها وسجنه عنده في الكرك، فشفع فيه فخر الدين بن الشيخ لما كان محاصره في الكرك فأطلقه، فخرجت في حلقه خُراجة فبطها فمات ودفن عند قبر جعفر والشهداء بمؤتة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي ملك الخوارزمية قلاً بركات خان لما كسرت أصحابه عند بحيرة حمص كما تقدم ذكره.

وفيها توفي

الملك

■ المنصور: ناصر الدين إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدمشق، بعد أن سلم بعلبك للصالح أيوب، ونقل إلى حمص، كان نزوله أولا ببستان سامة، فلما مرض حمل إلى الدهشة بستان الأشرف بالنيرب فمات فيها.

وفيها توفي: الصائن

■ محمد بن حسان بن رافع العامري الخطيب، وكان كثير السماع مسنداً وكانت وفاته بقصر حجاج رحمه الله تعالى.

وفيها توفي: الفقيه العلامة

■ محمد بن محمود بن عبد المنعم: المراتبي الحنبلي وكان فاضلا ذا فنون، أثنى عليه أبو شامة قال: صحبته قديماً ولم يترك بعده بدمشق مثله في الحنابلة، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن بسفح قاسيون رحمه الله.

والضياء

■ عبد الرحمن العمادي: المالكي الذي ولي وظائف الشيخ أبي عمرو بن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان وثلاثين وجلس في حلقته ودرس مكانه بزاوية المالكية.

والفقيه تاج الدين

■ إسماعيل بن جهبل بحلب، وكان فاضلا ديناً سليم الصدر رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها كان عود السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية، وزار بيت المقدس وفرق في أهله أموالا كثيرة، وأمر بإعادة سوره كما كان في أيام عمه الملك الناصر فاتح القدس. ونزل الجيوش لحصار الفرنج ففتحت طبريا في عاشر صفر وفتحت عسقلان في أواخر

جمادى الآخرة.

وفي رجب عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الآبار عن الخطابة بالجامع الأموي وتدريس الغزالية، وولي ذلك للقاضي عماد الدين بن عبد الكريم بن الحرستاني شيخ دار الحديث بعد ابن الصلاح.

وفيها أرسل الصالح أيوب يطلب جماعة من أعيان الدماشقة اتهموا بممالأة الصالح إسماعيل، منهم القاضي محيي الدين بن الزكي، وبنو صصري وابن العماد الكاتب، والحكيمي مملوك الصالح إسماعيل، والشهاب غازي والي بصرى، فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم شيء من العقوبات والإهانات، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **الحسين بن الحسين بن علي بن حمزة العلوي الحسيني، أبو عبد الله الأقساسي النقيب قطب الدين**، أصله من الكوفة وأقام ببغداد، وولي النقابة، ثم اعتقل بالكوفة، وكان فاضلا أديباً شاعراً مطبقاً، أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة رحمه الله.

■ **الشلوبين النحوي**: هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي، أبو علي الأندلسي الإشبيلي المعروف بالشلوبين، وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر.

قال ابن خلكان: ختم به أئمة النحو، وكان فيه تغفل، وذكر له شعراً ومصنفات، منها شرح الجزولية وكتاب التوطئة وأرخ وفاته بهذه السنة. وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى وعفا عنه.

■ **(الحريري).**

الشيخ علي المعروف بالحريري: علي بن أبي الحسين بن منصور البسري أصله من قرية بسر شرقي زرع، وأقام بدمشق مدة يعمل صنعة الحرير، ثم ترك ذلك وأقبل يعمل الفقيري على يد الشيخ علي المغربل، تلميذ الشيخ رسلان التركماني الجعبري، فاتبعه طائفة من الناس يقال لهم الحريرية وابتنى له زاوية على الشرف القبلي، وبدرت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية وغيرهم.

فلما كانت الدولة الأشرفية حبس في قلعة عزتا مدة سنين ثم أطلقه الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق، فلزم بلده بسر مدة حتى كانت وفاته في هذه السنة.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ١٨٠]: وفي رمضان أيضاً توفي الشيخ علي المعروف بالحريري المقيم بقرية بسر في زاويته، وكان يتردد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء وهم المعروفون بالحريرية أصحاب المنافي للشريعة، وباطنهم شر من ظاهرهم، إلا من رجع إلى الله منهم.

وكان عند الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون فيها من إظهار شعائر أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، وانفسد بسببه جماعة كبيرة من أولاد كبراء دمشق وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، وترك الإنكار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات وكثرة النفقات، فأضل خلقاً كثيراً وأفسد جماً غفيراً، ولقد أفتى في قتله مراراً جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله تعالى منه. هذا لفظه بحروفه.

واقف العزية الأمير

■ **عز الدين أيبك**: أستاذ دار المعظم، كان من العقلاء الأجواد الأمجاد، استنابه المعظم على صرخد وظهرت منه نهضة وكفاية وسداد، ووقف العزيتين الجوانية والبرانية، ولما أخذ منه الصالح أيوب صرخد عوضه عنها وأقام بدمشق ثم وشى عليه بأنه يكاتب الصالح إسماعيل فاحتيط عليه وعلى أمواله وحواصله فمرض وسقط إلى الأرض، وقال هذا آخر عهدي. ولم يتكلم حتى مات ودفن بباب النصر بمصر رحمه الله تعالى، ثم نقل إلى تربته التي فوق الوراقة.

وإنما أرخ السبط وفاته في سنة سبع وأربعين فالله أعلم

الشهاب

■ **الغازي بن العادل**: صاحب ميافارقين وخلاط وغيرهما من البلدان، كان من عقلاء بني أيوب وفضلائهم، وأهل الديانة منهم، ومما أنشد قوله:

ومن عجب الأيام أنك جالس ... على الأرض في الدنيا وأنت تسير

فسيرك يا هذا كسير سفينة ... بقوم جلوس والقلوع تطير

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق وجهز الجيوش والمجانيق إلى حمص، لأنه كان صاحبها الملك الأشرف موسى بن المنصور بن أسد الدين شيركوه قد قايض بها إلى تل باشر لصاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز، ولما علمت الحلبيون بخروج الدماشقة برزوا أيضاً في جحفل عظيم ليمنعوا حمص منهم، واتفق الشيخ نجم الدين عبد الله البادرائي مدرس النظامية ببغداد في رسالة فأصلح بين الفريقين، ورد كلا من الفئتين إلى مستقرها ولله الحمد.

وفيها قتل مملوك تركي شاب صبيٌ سيِّئه على دفعه عنه لما أراد به من الفاحشة، فصلب الغلام مسمراً، وكان شاباً حسناً جداً فتأسف الناس له لكونه صغيراً ومظلوماً وحسناً، ونظموا فيه قصائد، وممن نظم فيه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل، وقد أطال قصته جداً.

وفيها سقطت قنطرة رومية قديمة البناء بسوق الدقيق من دمشق، عند قصر أم الحكيم، فتهدم بسببها شيء كثير من الدور والدكاكين، وكان سقوطها نهاراً.

وفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع حريق بالمنارة الشرقية فأحرق جميع حشوها، وكانت سلالمها سقالات من خشب، وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها، وسلم الله الجامع وله الحمد. وقدم السلطان بعد أيام إلى دمشق فأمر بإعادتها كما كانت.

قلت: ثم احترقت وسقطت بالكلية بعد سنة أربعين وسبعمائة وأعيدت عمارتها أحسن مما كانت ولله الحمد. وبقيت حينئذ المنارة البيضاء الشرقية بدمشق كما نطق به الحديث في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام عليها، كما سيأتي بيانه وتقريره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً في محفة إلى الديار المصرية وهو ثقيل مدنف، شغله ما هو فيه عن أمره بقتل أخيه العادل أبي بكر بن الكامل الذي كان صاحب الديار المصرية بعد أبيه، وقد كان سجنه سنة استحوذ على مصر، فلما كان في هذه السنة في شوالها أمر بخنقه فخنق ودفن بتربة شمس الدولة، فما عمر بعده إلا إلى النصف من شعبان في العام القابل في أسوأ حال وأشد مرض، فسبحان من له الخلق والأمر.

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة بالديار المصرية.

■ **أفضل الدين الخونجي**: الحكيم المنطقي البارع في ذلك، وكان مع ذلك جيد السيرة في أحكامه.

قال أبو شامة: أثنى عليه، أكثر من واحد.

■ **علي بن يحيى جمال الدين أبو الحسن البغدادي المخرّمي**: كان شاباً فاضلا أديباً شاعراً ماهراً، صنف كتاباً مختصراً وجيزاً جامعاً لفنون كثيرة في الرياضة والعقل وذم الهوى، وسماه نتائج الأفكار. قال فيه من الكلم المستفادة الحكمية: السلطان إمام متبوع، ودين مشروع فإن ظلم جارت الحكام لظلمه، وإن عدل لم يجر أحد في حكمه، من مكنه الله في أرضه وبلاده، وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محله ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدي الأمانة، ويخلص الديانة، ويجمل السريرة، ويحسن السيرة، ويجعل العدل دأبه المعهود، والأمن غرضه المقصود، فالظلم يزل القدم، ويزيل النعم، ويجلب النقم، ويهلك الأمم.

وقال أيضاً: معارضة الطبيب توجب التعذيب، رب حيلة أنفع من قبيلة، الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار، سمين الغضب مهزول، ووالي الغدر معزول، قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار، ارض من أخيك في ولايته بعشر ما كنت تعهده في مودته، التواضع من مصائد الشرف، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز. ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم.

وذكر في غضون كلامه أن خادماً لعبد الله بن عمر أذنب فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال: يا سيدي أما لك ذنب تخاف الله تعالى منه؟ قال: بلى، قال بالذي أمهلك لما أمهلتني، ثم أذنب العبد ثانية فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك فعفا عنه، ثم أذنب الثالثة فعاقبه وهو لا يتكلم فقال له ابن عمر: ما لم تقل مثلما قلت في الأوليتين؟ فقال: يا سيدي حياء من حلمك مع تكرار جرمي. فبكى ابن عمر وقال: أنا أحق بالحياء من ربي، أنت حر لوجه الله تعالى. ومن شعره يمدح الخليفة.

يا من إذا ضنّ السحاب بمائه ... هطلت يداه على البرية عسجدا

جورت كسرى يا مبخل حاتم ... فغدت بنو الآمال نحوك سجدا

وقد أورد له ابن الساعي أشعاراً كثيرة حسنة رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عمرو

■ **ابن الحاجب**: المالكي عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدويني ثم المصري العلامة أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية كان أبوه حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي، واشتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريراً بليغاً، وتفقه وساد أهل عصره، ثم كان رأساً في علوم كثيرة، منها الأصول والفروع والعربية والنحو والتصريف والعروض والتفسير وغير ذلك.

وقد كان استوطن دمشق في سنة سبع عشرة وستمائة، ودرس بها للمالكية بالجامع حتى كان خروجه بصحبة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام في سنة ثمان وثلاثين، فصارا إلى الديار المصرية حتى كانت وفاة الشيخ أبي عمرو في هذه السنة بالإسكندرية، ودفن بالمقبرة التي بين المنارة والبلد.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وكان من أذكى الأئمة قريحة، وكان ثقة حجة متواضعاً عفيفاً كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله، ناشراً له محتملا للأذى صبوراً على البلوى، قدم دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة، فأقام بها مدرساً للمالكية وشيخاً للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية، وكان ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم متقناً لمذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

وقد أثنى عليه ابن خلكان ثناء كثيراً، وذكر أنه جاء إليه في أداء شهادة حين كان نائباً في الحكم بمصر وسأله عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط، كـ «إذا» قال إن أكلتِ إن شربتِ فأنت طالق لم كان لا يقع الطلاق حتى شربت أولا؟ وذكر أنه أجاب عن ذلك في تؤدة وسكون.

قلت ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه جواهر ابن شاش، ومختصره في أصول الفقه، استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي، وقد منّ الله تعالى علي بحفظه وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية، ولله الحمد والمنّة.

وله شرح المفصل والأمالي في العربية والمقدمة المشهورة في النحو، اختصر فيها مفصل الزمخشري وشرحها، وقد شرحها غيره أيضاً وله التصريف وشرحه وله العروض على وزن الشاطبية رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب، وقتل ابنه توران شاه وتولية المعز عز الدين أيبك التركماني على ما سيأتي.

وفي رابع المحرم يوم الاثنين توجه السلطان الملك الصالح من دمشق إلى الديار المصرية بمحفة. قاله السبط.

وكان قد نادى في دمشق: من له عندنا شيء فليأت، فاجتمع خلق كثير بالقلعة، فدفعت إليهم أموالهم.

وفي عاشر صفر دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الصالح أيوب فنزل بدرب الشعارين داخل باب الجابية.

وفي جمادى الآخرة أمر النائب بتخريب الدكاكين المحدثة وسط باب البريد، وأمر أن لا يبقى فيها دكان سوى ما في جانبيه إلى جانب الحائطين القبلي والشمالي، وما في الوسط يهدم.

قال أبو شامة: وقد كان العادل هدم ذلك ثم أعيد ثم هدمه ابن يغمور، والمرجو استمراره على هذه الصفة.

وفيها توجه الناصر داود من الكرك إلى حلب فأرسل الصالح أيوب إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن يغمور بخراب دار سامة المنسوبة إلى الناصر بدمشق، وبستانه الذي بالقابون، وهو بستان القصر، وأن تقلع أشجاره ويخرب القصر، وتسلم الصالح أيوب الكرك من الأمجد حسن بن الناصر، وأخرج من كان بها من بيت المعظم، واستحوذ على حواصلها وأموالها، فكان فيها من الذهب ألف ألف دينار وأقطع الصالح الأمجد هذا إقطاعاً جيداً.

وفيها طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئاً كثيراً من المحال والدور الشهيرة، وتعذرت الجمع في أكثر الجوامع بسبب ذلك سوى ثلاثة جوامع، ونقلت توابيت جماعة من الخلفاء إلى الترب من الرصافة خوفاً عليهم من أن تغرق محالهم، منهم المعتضد ابن الأمير أبي أحمد بن المتوكل، وذلك بعد دفنه بنيف وخمسين سنة وثلاثمائة سنة، وكذا نقل ولده المكتفي وكذا المتقي بن المقتدر بالله رحمهم الله تعالى.

وفيها هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقاً كثيرة من المسلمين.

وكذا في ربيع الأول منها، فنصب السلطان المخيم تجاه العدو بجميع

الجيش، وشنق خلقاً ممن هرب من الفرنج، ولامهم على ترك المصابرة قليلا ليرهبوا عدوَّ الله وعدوهم، وقوي المرض وتزايد بالسلطان جدًّا فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي رحمه الله تعالى بالمنصورة، فأخفت جاريته أم ولده خليل المدعوّة شجر الدُّر موته وأظهرت أنه مريض مُنِيف لا يُوصل إليه، وبقيت تُعلم عنه بعلامته سواء، وأعلمت إلى أعيان الأمراء، فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا، فأقدموه إليهم سريعاً، وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ، فلما قدم عليهم ملكوه إليهم وبايعوه أجمعين،، فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسروهم وقتل منهم ثلاثين ألفاً. وذلك في أول السنة الداخلة. ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه، ضربه بعض الأمراء وهو عز الدين أيبك التركماني، فضربه في يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى قصر من خشب في المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة وداسوه بأرجلهم ودفن كالجيفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان فيمن ضربه البندقداري على كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يغاث.

وممن قتل في هذه السنة

فخر الدين

يوسف ابن الشيخ

■ بن حمويه وكان فاضلا ديناً مهيباً وقوراً خليقاً بالملك، وكانت الأمراء تعظمه جداً، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح أيوب لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك حماية لجانب بني أيوب، قتلته الداوية من الفرنج شهيداً قبل قدوم المعظم توران شاه إلى مصر، في ذي القعدة ونهبت أمواله وحواصله وخيوله، وخربت داره، ولم يتركوا شيئاً من الأفعال الشنيعة البشعة إلا صنعوه به، مع أن الذين تعاطوا ذلك من الأمراء كانوا معظمين له غاية التعظيم. ومن شعره:

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما ... رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر

أطعت الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط، فقتل منهم ثلاثين ألفاً وقيل مائة ألف، وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد، ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا، وكان فيمن أسر ملك الإفرنسيس وأخوه، وأرسلت غفارة ملك الأفرنسيس إلى دمشق، فلبسها نائبها في يوم الموكب، وكانت من سقرلاط أحمر تحتها فروسنجاب، فأنشد في ذلك جماعة من الشعراء فرحاً بما وقع، ودخل الفقراء كنيسة مريم فأقاموا بها سماعاً فرحاً بما نصر الله تعالى على النصارى، وكادوا أن يخربوها وكانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط، فلما كانت هذه الكسرة عليهم سخموا وجوه الصور، فأرسل نائب البلد فجناهم وأمر اليهود فصفعوهم، ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء ابن أستاذهم توران شاه، ودفنوه إلى جانب النيل من الناحية الأخرى رحمه الله تعالى ورحم أسلافه بمنّه وكرمه.

تمليك الملك المعز عز الدين أيبك التركماني مصر بعد بني أيوب وتداول دولة الأتراك

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية ابن أستاذهم المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب، وكان ملكه بعد أبيه بشهرين كما تقدم بيانه، ولما قُتل انفصل أمره نادوا فيما بينهم لا بأس لا بأس واستدعوا من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركماني، فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، وركبوا إلى القاهرة، ثم بعد خمسة أيام أقاموا لهم صبياً من بني أيوب ابن عشر سنين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود إقسيس بن الكامل، وجعلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة باسمهما، وكاتبوا أمراء الشام بذلك، فما تم لهم الأمر بالشام، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا على الديار المصرية، وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظية الصالح أيوب، فتزوجت بالمعز، وكانت الخطبة والسكة باسمها، يدعى لها على المنابر أيام الجمع بمصر وأعمالها، وكذا تضرب السكة باسمها أم خليل، والعلامة على المناشير والتواقيع بخطها واسمها، مدة ثلاثة أشهر قبل المعز، ثم آل أمرها إلى ما سنذكره من الهوان والقتل.

ذكر الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر فاتح القدس صاحب حلب لدمشق حرسها الله تعالى

لما وقع بالديار المصرية من قتل الأمراء للمعظم توران شاه بن الصالح أيوب ركب الحلبيون معهم ابن أستاذهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف فاتح بيت المقدس، ومن كان عندهم من ملوك بني أيوب منهم الصالح إسماعيل بن العادل، وكان أحق الموجودين بالملك، من حيث السن والعقل والحرمة والرياسة، ومنهم الناصر داود بن المعظم بن العادل، والأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، الذي كان صاحب حمص وغيرهم، فجاؤوا إلى دمشق فحاصروها فملكوها سريعاً ونهبت دار ابن يغمور وحبس في القلعة وتسلموا ما حولها كبعلبك وبصرى والصلت وعجلون وصرخد، وامتنعت عليهم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل، كان قد تغلب عليهما في هذه السنة حين قتل المعظم توران شاه، فطلبه المصريون ليملكوه عليهم فخاف مما حل بابن عمه، فلم يذهب إليهم.

ولما استقرت يد الحلبيين على دمشق وما حولها جلس الناصر في القلعة وطيب قلوب الناس، ثم ركبوا إلى غزة ليتسلموا الديار المصرية، فبرز إليهم الجيش المصري فاقتتلوا معهم أشد القتال، فكسر المصريون أولا بحيث إنه خطب للناصر بها ذلك اليوم، ثم كانت الدائرة على الشاميين فانهزموا وأسر من أعيانهم خلق كثير، وعدم من الجيش الصالح إسماعيل رحمه الله تعالى، وقد أنشد هنا الشيخ أبو شامة لبعضهم:

ضيّعَ إسماعيلُ أموالنا ... وخرَّبَ المغنى بلا معنى

وراحَ من جِلُّق هذا جزا ... من أفقرَ النّاسَ وما استغنى

ذكر شيء من ترجمة الصالح أبي الخيش إسماعيل واقف تربة أم الصالح

وقد كان الصالح رحمه الله تعالى ملكاً عاقلا حازماً تقلبت به الأحوال أطواراً كثيرة، وقد كان الأشرف موسى أوصى له بدمشق من بعده، فملكها شهوراً ثم انتزعها منه أخوه الكامل، ثم ملكها من يد الصالح أيوب خديعة ومكراً، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين، ثم استعادها منه الصالح أيوب عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى، ثم أخذنا منه كما ذكرنا، ولم يبق له بلد يأوي إليه، فلجأ إلى المملكة الحلبية في جوار الناصر يوسف صاحب حلب، فلما كان في هذه السنة ما ذكرنا عدم بالديار المصرية في المعركة فلا يدرى ما فعل به والله تعالى أعلم. وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والإقراء بدمشق رحمه الله تعالى.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان والمشاهير

الملك

■ المعظم توران شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل، كان أولا صاحب حصن كيفا في حياة أبيه، وكان أبوه يستدعيه في أيامه فلا يجيبه، فلما توفي أبوه كما ذكرنا استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم، ثم قتلوه كما ذكرنا، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم، وقد قيل إنه كان متخلعاً لا يصلح للملك، وقد رئي أبوه في المنام بعد قتل ابنه وهو يقول:

قتلوه شرّ قتله ... صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلا ... لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب ... لأقلّ الناس أكله

فكان كما ذكرنا من اقتتال المصريين والشاميين وممن عدم فيما بين الصفين من أعيان الأمراء والمسلمين فمنهم:

■ الشمس لؤلؤ مدبر ممالك الحلبيين، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

وفيها كانت وفاة واقفة الحافظية:

■ الخاتون أرغون الحافظية سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ، صاحب قلعة جعبر، وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهراً ولها أموال جزيلة عظيمة، وهي التي كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب، فصادرها الصالح إسماعيل فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال، وقد وقفت دارها، بدمشق على خدامها، واشترت بستان النجيب ياقوت الذي كان خادم الشيخ تاج الدين الكندي، وجعلت فيه تربة ومسجداً، ووقفت فيه عليها أوقافاً كثيرة جيدة رحمها الله.

■ واقف الأمينية التي ببعلبك:

أمين الدولة أبو الحسن غزال المتطبب وزير الصالح إسماعيل أبي الخيش الذي كان مشؤوماً على نفسه، وعلى سلطانه، وسبباً في زوال النعمة عنه وعن مخدومه، وهذا هو وزير السوء، وقد اتهمه السبط بأنه كان متسرّاً بالدين، وأنه لم يكن له في الحقيقة دين، فأراح الله تعالى منه عامة المسلمين، وكان قتله في هذه السنة لما عدم الصالح إسماعيل بديار مصر، عمد من عمد من الأمراء إليه وإلى ابن يغمور ناصر الدين فشنقوهما وصلبوهما على القلعة بمصر، وقد وجد لأمين الدولة غزال هذا من الأموال والتحف والجواهر والأثاث ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، وعشرة آلاف مجلد بخط منسوب وغير ذلك من الخطوط النفيسة الفائقة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق وقدمت عساكر المصريين فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة، فجهز لهم الملك الناصر جيشاً فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية، وقصروهم عليها.

وتزوجت في هذه السنة أم خليل شجرة الدر بالملك المعز عز الدين أيبك التركماني، مملوك زوجها الصالح أيوب.

وفيها نقل تابوت الصالح أيوب إلى تربته بمدرسته، ولبست الأتراك ثياب العزاء، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة.

وفيها خربت الترك دمياط ونقلوا الأهالي إلى مصر وأخلوا الجزيرة أيضاً خوفاً من عود الفرنج.

وفيها أكمل شرح الكتاب المسمى بنهج البلاغة في عشرين مجلداً مما ألفه عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المدائني، الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة وفرساً، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة، لأنه كان شيعياً معتزلياً.

وفي رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهرقلي مدرس النظامية ببغداد فولي قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور، وخلع عليه.

وفي شعبان ولي تاج الدين عبد الكريم بن استاذ دار الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذي تركها تزهداً عنها، وخلع عليه بطرحة، ووضع على رأسه غاشية، وركب الحجاب في خدمته.

وفي هذه السنة صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر، وهذا اتفاق غريب.

وفيها وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلا باليمن خرج فادعى الخلافة، وأنه أنفذ إليه جيشاً فكسروه وقتلوا خلقاً من أصحابه وأخذ منهم صنعاء وهرب هو بنفسه في شرذمة قليلة ممن بقي من أصحابه.

وفيها أرسل الخليفة إليه بالخلع والتقليد.

وفيها كانت وفاة:

بهاء الدين

■ علي بن هبة الله بن سلامة الجُمّيزي خطيب القاهرة، رحل في صغره إلى العراق فسمع شُهدة وغيرها، وكان فاضلا قد أتقن معرفة مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وكان ديناً حسن الأخلاق واسع الصدر كثير البر، قل أن يقدم عليه أحد إلا أطعمه شيئاً، وقد سمع الكثير على السلفي وغيره، وأسمع الناس شيئاً كثيراً من مروياته، وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وله تسعون سنة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أقضى القضاة أبو الفضل

■ عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم

اللمغاني الحنفي من بيت العلم والقضاء، درس بمشهد أبي حنيفة وناب عن قاضي القضاة ابن فضلان الشافعي، ثم عن قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الحنبلي، ثم عن قاضي القضاة عبد الرحمن بن مقبل الواسطي، ثم بعد وفاته في سنة ثلاث وثلاثين استقل القاضي عبد الرحمن اللمغاني بولاية الحكم ببغداد، ولقب أقضى القضاة، ولم يخاطب بقاضي القضاة، ودرس للحنفية بالمستنصرية في سنة خمس وثلاثين، وكان مشكور السيرة في أحكامه ونقضه وإبرامه.

ولما توفي تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهرقلي رحمهما الله تعالى وتجاوز عنهما بمنّه وكرمه آمين.

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة هجرية

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة وسروج ورأس العين وما والى هذه البلاد، فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا فإنا لله وإنا إليه راجعون ووقعوا بتجار يسيرون بين حران ورأس العين، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول من الديار المصرية، وستمائة ألف دينار، وكان عدة من قتلوا في هذه السنة من أهل الجزيرة نحواً من عشرة آلاف قتيل، وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال السبط: وفيها حج الناس من بغداد، وكان لهم عشر سنين لم يحجوا من زمن المستنصر.

وفيها وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار، ويقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيه قصداً.

وفيها أعاد قاضي القضاة عمر بن علي النهرقلي أمر المدرسة التاجية التي كان قد استحوذ عليها طائفة من العوام، وجعلوها كالقيسارية يتبايعون فيها مدة طويلة، وهي مدرسة جيدة حسنة قريبة الشبه من النظامية، وقد كان بانيها يقال له تاج الملك، وزير ملك شاه السلجوقي، وأول من درس بها الشيخ أبو بكر الشاشي.

وفيها كانت وفاة: جمال الدين

■ ابن مطروح وقد كان فاضلا رئيساً كيساً شاعراً من خيار المتعممين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق فلبس لبس الجند.

قال السبط: وكان لا يليق في ذلك ومن شعره في الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم في سنة ست وثلاثين في الدولة الكاملية فقال هذا الشاعر، ابن مطروح رحمه الله:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا للكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهّره أوّلا ... وناصر طهّره آخرا

ولما عزله الصالح عن النيابة أقام خاملا وكان كثير البر بالفقراء والمساكين، وكانت وفاته بمصر.

وفيها توفي: شمس الدين

■ محمد بن سعد المقدسي: الكاتب الحسن الخط، كان كثير الأدب، وسمع الحديث كثيراً، وخدم السلطان الصالح إسماعيل والناصر داود، وكان ديناً فاضلا شاعراً له قصيدة ينصح فيها السلطان الصالح إسماعيل وما يلقاه الناس من وزيره وقاضيه وغيرهما، من حواشيه وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ عبد العزيز بن علي بن عبد الجبار المغربي، أبوه ولد ببغداد، وسمع بها الحديث، وعني بطلب العلم وصنّف كتاباً في مجلدات على حروف المعجم في الحديث، وحرر فيه حكاية مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله

■ محمد بن غانم بن كريم الأصبهاني، قدم بغداد، وكان شاباً فاضلا، فتلمذ للشيخ شهاب الدين السهروردي، وكان حسن الطريقة، له يد في التفسير، وله تفسير على طريقة التصوف، وفيه لطافة.

ومن كلامه في الوعظ: العالم كالذرة في فضاء عظمته، والذرة كالعالم في كتاب حكمته، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته، والفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفي الوسائط شمس آخريته، أستار الليل مسدولة، وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل مطرودة معزولة، ما هذه الوقعة والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟

وقوفي بأكناف العقيق عقوق ... إذا لم أرد والدمع فيه عقيق

وإذا لم أمت شوقاً إلى ساكن الحمى ... فما أنا فيما أدّعيه صدوق

أيا ربع ليلى ما المحبّون في الهوى ... سواء ولا كلُّ الشراب رحيق

ولا كلّ من تلقاه يلقاك قلبه ... ولا كلّ من يحنو إليك مشوق

تكاثرت الدّعوى على الحبِّ فاستوى ... أسير صبابات الهوى وطليق

أيها الآمنون، هل فيكم من يصعد إلى السماء؟ أيها المحبوسون في مطامير مسمياتهم، هل فيكم سليمان الفهم لفهم رموز الوحوش والأطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه أرني أنظر إليك، فقد طال الانتظار؟.

وقال بعد الاستسقاء: لما صعدت إلى الله عز وجل نفس المشتاق بكت آماق الآفاق، وجادت بالدر مرضعة السحاب، فامتص لبن الرحمة رضيع التراب وخرج من أخلاف الغمام نطاف الماء النمير، فاهتزت به الهامدة، وقرت عيون الغدير، وتزينت الرياض بالسندس الأخضر، فحبر الصبغ حبرها أحسن تحبير، وانفلق بأنملة الصبا أكمام الأنوار، وانشقت بنفحات أنفاسه جيوب الأزهار، ونطقت أجزاء الكائنات بلغات صفاتها، وعادات عبرها.

أيها النائمون تيقظوا، أيها المستعدون تعرضوا ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

أبو الفتح

■ نصر الله بن هبة الله من عبد الباقي بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن بصاقة الغفاري الكناني المصري ثم الدمشقي كان من أخصاء الملك المعظم، وولده الناصر داود، وقد سافر معه إلى بغداد في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان أديباً مليح المحاضرة رحمه الله تعالى ومن شعره قوله:

ولّما أبيتم سادتي عن زيارتي ... وعوّضتموني بالبعاد عن القرب

ولم تسمحوا بالوصل في حال يقظتي ... ولم يصطبر عنكم لرقّته قلبي

نصبت لصيد الطّيف جفني حبالةً ... فأدركت خفض العيش بالنّوم والنّصب

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائي رسولاً الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام، وأصلح بين الجيشين، وكانوا قد اشتدت الحرب بينهم ونشبت، وقد مالأ الجيش المصري الفرنج ووعدهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين، وجرت خطوب كثيرة، فأصلح بينهم وخلص جماعة من بيوت الملوك من الديار المصرية، منهم أولاد الصالح إسماعيل،وبنت الأشرف، وغيرهم من أولاد صاحب حمص وغيرهم، جزاه الله خيراً.

وفيها فيما ذكر ابن الساعي كان رجل ببغداد على رأسه زبادي قاشاني فزلق فتكسرت ووقف يبكي، فتألم الناس له لفقره وحاجته، وأنه لم يكن يملك غيرها. فأعطاه رجل من الحاضرين ديناراً، فلما أخذه نظر فيه طويلا ثم قال: والله هذا الدينار أعرفه، وقد ذهب مني في جملة دنانير عام أول، فشتمه بعض الحاضرين فقال له ذلك الرجل: فما علامة ما قلت؟ قال زنة هذا كذا وكذا، وكان معه ثلاثة وعشرون ديناراً، فوزنوه فوجدوه كما ذكر، فأخرج له الرجل ثلاثة وعشرين ديناراً، وكان قد وجدها كما قال حين سقطت منه، فتعجب الناس لذلك.

قال: ويقرب من هذا أن رجلا بمكة نزع ثيابه ليغتسل من ماء زمزم وأخرج من عضده دملجاً زنته خمسون مثقالا فوضعه مع ثيابه، فلما فرغ من اغتساله لبس ثيابه ونسي الدملج ومضى، وصار إلى بغداد وبقي مدة سنتين بعد ذلك وأيس منه، ولم يبق معه سنوى شيء يسير فاشترى به زجاجاً من القوارير ليبيعها ويتكسب بها، فبينما هو يطوف بها إذ تعس فسقطت القوارير فتكسرت، فوقف يبكي واجتمع الناس عليه يتألمون له، فقال في جملة كلامه: والله يا جماعة لقد ذهب مني من مدة سنتين دملج من ذهب عند بئر زمزم زنته خمسون ديناراً، ما تألمت لفقده كما باليت لتكسير هذه القوارير، وما ذاك إلا لأن هذه كانت جميع ما أملك، فقال له رجل من الجماعة: فأنا والله لقيت ذلك الدملج، وأخرجه من عضده فدفعه إليه فتعجب الناس والحاضرون والله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة

قال سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان [٨/٧٩٣، ٧٩٣]: فيها وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى بأن ناراً ظهرت في أرض عدن في بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر في الليل، ويصعد منها دقان عظيم في أثناء النهار، فما شكوا أنها النار التي ذكر النبي ﷺ أنها تظهر في آخر الزمان، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات.

وفيها قدم الفارس أقطاي من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم، ومعه جماعة من البحرية المفسدين في الأرض، وقد بغوا وطغوا وتجبروا، ولا يلتفتون إلى الملك المعز أيبك التركماني، ولا إلى زوجته شجر الدر، فشاور المعز زوجته شجر الدر في قتل أقطاي، فأذنت له، فعمل عليه حتى قتله في هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر، فاستراح المسلمون من شره.

وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين.

وفيها قدمت بنت ملك الروم في تجمل عظيم وإقامات هائلة إلى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر، وجرت أوقات حافلة بدمشق بسببها.

ومن توفي فيها من المشاهير

■ **الخسروشاهي المتكلم: عبد الحميد بن عيسى: الشيخ شمس الدين الخسروشاهي**، أحد مشاهير المتكلمين، وممن اشتغل على الفخر الرازي في الأصول وغيرها، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن المعظم وحظي عنده.

قال أبو شامة: وكان شيخاً مهيباً فاضلا متواضعاً حسن الظاهر رحمه الله تعالى.

قال السبط: وكان متواضعاً كيساً محضر خير، لم ينقل عنه أنه آذى أحداً فإن قدر على نفع وإلا سكت.

توفي بدمشق ودفن بقاسيون على باب تربة الملك المعظم رحمه الله تعالى.

الشيخ مجد الدين

■ **ابن تيمية صاحب الأحكام عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي**، جد الشيخ تقي الدين بن تيمية، ولد في حدود سنة تسعين وخمسمائة وتفقه في صغره على عمه الخطيب فخر الدين، وسمع الكثير ورحل إلى البلاد وبرع في الحديث والفقه وغيره، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة ومات يوم الفطر بحران.

الشيخ

■ **كمال الدين بن طلحة: الذي ولّي الخطابة بدمشق بعد الدولعي**، ثم عزل وصار إلى الجزيرة فولي قضاء نصيبين، ثم صار إلى حلب فتوفي بها في هذه السنة.

قال أبو شامة: وكان فاضلا عالماً طلب أن يلي الوزارة فامتنع من ذلك، وكان هذا من التأييد، رحمه الله تعالى.

■ **السديد بن علان**: آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعاً بدمشق.

الناصح

■ **فرج بن عبد الله الحبشي**: كان كثير السماع مسنداً خيراً صالحاً مواظباً على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق رحمه الله.

■ **النصرة بن صلاح الدين يوسف بن أيوب**

النصرة ابن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب: توفي بحلب في هذه السنة. وآخرون رحمهم الله أجمعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

قال السبط: فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين، وأهل مكة، ثم عاد معهم إلى الحلة.

قال أبو شامة: وفيها في ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشيخ الفقيه.

ضياء الدين

■ صقر بن يحيى بن سالم وكان فاضلا ديّناً، ومن شعره قوله رحمه اللّه تعالى:

من ادعى أن له حالةً تخرجهُ عن منهج الشّرع
فلا تكونن له صاحباً فإنّهُ ضرٌّ بلا نفع

وهو واقف القوصية.

أبو العرب

■ إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري القوصي: واقف داره بالقرب من الرحبة على أهل الحديث وبها قبره، وكان مدرساً بحلقة جمال الإسلام تجاه البرادة، فعرفت به، وكان ظريفاً مطبوعاً حسن المحاضرة، وقد جمع له معجماً حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة.

قال أبو شامة: وقد طالعته بخطه فرأيت فيه أغاليط وأوهاماً في أسماء الرجال وغيرها، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة بن دليم فقال سعد بن عبادة بن الصامت وهذا غلط فاحش.

وقال في مسند خرقة التصوف فغلط وصحف حبياً أبا محمد حسيناً؟.

قال أبو شامة: رأيت ذلك بخطه، توفي يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة رحمه اللّه.

وقد توفي الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب، وكانت وفاته بها، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى،كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)]، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه الذيل [ص: ١٩٠] وشرحه، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة، وكيفية خروجها وأمرها، وهذا محرر في كتاب: دلائل النبوة من السيرة النبوية، في أوائل هذا الكتاب وللّه الحمد والمنّة.

وملخص ما أورده أبو شامة رحمه اللّه تعالى، أنه قال: وجاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكتبت الكتب في خامس رجب، والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق حرسها اللّه تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول اللّه ﷺ فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لاتقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى». فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب.

قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجاً، ولم يكن لها حر ولفح على عظمها، إنما كانت آية من آيات اللّه عز وجل».

قال أبو شامة: وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها.

«لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة - يعني النبوية - دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث مئاثر، وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد مدت مسيل شظا وما عاد بسبيل، واللّه لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيراناً، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ورجعت تسير في الشرق فخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر اللّه تعالى في كتابه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣]، وقد أكلت الأرض.

وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة والنار في زيادة ما تغيرت، وقد عادت إلى الحرار في قريظة طريق المعبر للحاج العراقي إلى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر،والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من عند قريظة، وقد زادت وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك، واللّه يجعل العاقبة إلى خير، فما أقدر أصف هذه النار».

قال أبو شامة: «وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخر سنة أربع وخمسين وستمائة ووقع في شرقي المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم: انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت إلى الساعة، ولا ندري ماذا تفعل؟ ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى، وهذه دلائل القيامة».

قال: «وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة وقع بالمدينة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحال ثلاثة أيام يقع في اليوم والليلة اربع عشرة زلزلة، فلما كان يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول اللّه ﷺ، وهي برأي العين من المدينة، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر، كما قال اللّه تعالى،وهي بموضع يقال له أُحَيْلين، وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض ويخرج منها أمهاد وجبال صغار، ويسير على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك، فإذا جمد صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر، وقد حصل بطريق هذه النار إقلاع عن المعاصي والتقرب إلى اللّه تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها».

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة «ومن كتاب الشيخ شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة بالثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، واللّه لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة النبوية اضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديل الحرم الشريف، وتمت الزلزلة إلى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل

دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس جبلين نار عظيمة مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت واشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت إلى الأمير كلّمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله تعالى، فاعتق كل مماليكه ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل ذلك قلت: اهبط الساعة معنا إلى النبي ﷺ فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم والنسوان وأولادهم، وما بقي أحد لا في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ، واشفقنا منها، وظهر ضوؤها إلى أن أبصرت من مكة ومن الفلاة جميعها ثم سال منها نهر من نار، وأخذ فيه وادي أجيلين وسد الطريق ثم طلع إلى بحرة الحاج وهو بحر نار يجري، وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت الوادي وادي الشظا، وما عاد يجري في الوادي سيل قط لأنها حفرته نحو قامتين وثلث علوها، وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة والمدينة قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي إلينا منها قتير، وخفنا أنه يجيئنا فاجتمع الناس ودخلوا على النبي ﷺ وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفئ بقدرة الله وأنها إلى الساعة وما نقصت إلا ترى مثل الجمال حجارة ولها دوي ما يدعنا نرقد ولا ناكل ولا نشرب وما أقدر أصف لك عظمها ولا ما فيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع، ونذبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها، وما أصبح يقدر يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم خامس رجب، وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ما يطلعان إلا كاسفين، فنسأل الله العافية».

قال أبو شامة: وبان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك أيش هو؟ إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

قلت: وكان أبو شامة قد أرخ قبل مجيء الكتب بأمر هذه النار، فقال: وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة ثم انجلى، وكسفت الشمس، وفي غده احمرت وقت طلوعها وغروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور، والله على كل شيء قدير.

ثم قال: واتضح بذلك ما صوره الشافعي من اجتماع الكسوف والعيد، واستبعده أهل النجامة.

ثم قال أبو شامة: «ومن كتاب آخر من بعض بني الفاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل إلينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أعلى أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخلافة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير، وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله وأشرف الناس على الهلاك وعادت السفن تدخل إلى وسط البلدة، وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم: لما كان بتاريخ ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة ومن قبلها بيومين، عاد الناس يسمعون صوتاً مثل صوت الرعد، ساعة بعد ساعة - وما في السماء غيم حتى نقول: إنه منه - يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر صوت الرعد حتى سمعه الناس وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدويّ الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه، وتمت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية، بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع لها الناس روعة عظيمة، ثم ظهر لها دقان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض، فيصل إلى قبل غروب الشمس من يوم الجمعة،، ثم ظهرت النار لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي وإلى الحجرة الشريفة، واستجار الناس بها وأحاطوا بالحجرة وكشفوا رؤوسهم وأقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله تعالى واستجاروا بنبيه عليه الصلاة والسلام،وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت والصبيان واجتمعوا كلهم وأخلصوا إلى الله، وغطت حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍّ وتال للقرآن وراكع وساجد، وداع إلى الله عز وجل، ومتنصّل من ذنوبه ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، وورد علينا كل ما لنا تحت يده، وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم وكالمدينة ارتفاعاً وعرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد، وبقيت كذلك أياماً ثم سالت سيلاناً إلى وادي أجيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة، حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمامها، حتى بنت لها جبلين وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم إنها عظمت الآن وسناءها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم في آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا طرف منها كبير يكفي. والشمس والقمر، كأنهما منكسفان إلى الآن وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر».

وقد قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كاشف الضرّ صفحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها ... حلا ونحن بها حقّاً أحقّاء
زلازل تخشع الصّمّ الصّلاب لها ... وكيف يقوى على الزّلزال شمّاء
أقام سبعاً يرجُّ الأرض فانصدعت ... عن منظر منه عين الشّمس عشواء
بحر من النّار تجري فوقه سفن ... من الهضاب لها في الأرض إرساء
يُرى لها شرر كالقصر طائشةً ... كأنّها ديمة تنصبُّ هطلاء
تنشقُّ منها قلوب الصّخر إن زفرت ... رعباً وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف في الجوّ الدّقان إلى ... أن عادت الشّمس منه وهي دهماءُ
قد أثّرت سفعةً في البدر لفحتها ... فليلة التّمّ بعد النّور لبلاء
تحدّث النّيّرات السّبع ألسنها ... بما يلاقي بها تحت الثّرى الماء

وقد أحاط لظاها بالبروج إلى أن كاد يلحقها بالأرض أهواء
فيا لها آيةً من معجزات رسول اللّه يعقلها القوم الألبّاء
فباسمك الأعظم المكنون إن عَظُمت منّا الذّنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضّل وامح واعف واصفح فكلّ لفرط الجهل خطّاء
فقوم يونس لمّا آمنوا كشف العذاب عنهم وعمّ القوم نعماء
ونحن أمّة هذا المصطفى ولنا منه إلى عفوك المرجوّ دعّاء
هذا الرّسول الّذي لولاه ما سلكتْ محجّة في سبيل اللّه بيضاء
فارحم وصلّ على المختار ما خطبتْ على علا منبر الأوراق ورقاء

قلت: والحديث الوارد في أمر هذه النار مخرج في الصحيحين [خ (٧١١٨)، م (٢٩٠٢)] من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لاتقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى». وهذا لفظ البخاري.

وقد وقع هذا في هذه السنة - أعني سنة أربع وخمسين وستمائة - كما ذكرنا، وقد أخبرني قاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم التميمي الحنفي الحاكم بدمشق في بعض الأيام في المذاكرة، وجرى ذكر هذا الحديث وما كان من أمر هذه النار في هذه السنة فقال: سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدي ببصرى في تلك الليالي أنهم رأوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز.

قلت: وكان مولده في سنة ثنتين وأربعين وستمائة، وكان والده مدرساً للحنفية ببصرى وكذلك كان جده، وهو قد درس بها أيضاً ثم انتقل إلى دمشق فدرس بالصادرية وبالمقدّمية، ثم ولي قضاء القضاة الحنفية، وكان مشكور السيرة في الأحكام. وقد كان عمره حين وقعت هذه النار بالحجاز ثنتي عشرة سنة، ومثله ممن يضبط ما يسمع من الخبر أن الأعرابي أخبر والده في تلك الليالي، وصلوات اللّه وسلامه على نبيه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية وغرق بغداد قوله:

سبحان من أصبحتْ مشيتهُ جاريةً في الورى بمقدار
أغرقَ بغدادَ بالمياه كما أحرقَ أرضَ الحجازِ بالنّارِ

قال أبو شامة: والصواب أن يقال:

في سنة أغرقَ العراق وقد أحرقَ أرض الحجازِ بالنّارِ

وقال ابن الساعي في تاريخ سنة أربع وخمسين وستمائة: وفي يوم الجمعة ثامن عشر رجب - يعني من هذه السنة - كنت جالساً بين يدي الوزير فورد عليه كتاب من مدينة الرسول ﷺ صحبة قاصد يعرف بقيماز العلوي الحسني المدني، فناوله الكتاب فقرأه وهو يتضمن أن مدينة الرسول ﷺ زلزلت يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة حتى ارتج المنبر الشريف النبوي، وسمع صرير الحديد، وتحركت السلاسل، وظهرت نار على مسيرة أربعة فراسخ من المدينة، وكانت ترمي بشرر كأنه رؤوس الجبال، ودامت خمسة عشر يوماً.

قال القاصد: وجئت ولم تنقطع بعد، بل كانت على حالها، وسأله إلى أي الجهات ترمي؟ فقال: إلى جهة الشرق، واجتزت عليها أنا ونجابة اليمن ورمينا فيها سعفة فلم تحرقها، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها وأخرج قيماز المذكور شيئا من الصخر المحترق وهو كالفحم لوناً وخفة.

قال: وذكر في الكتاب وكان بخط قاضي المدينة أنهم لما زلزلوا دخلوا الحرم وكشفوا رؤوسهم واستغفروا وأن نائب المدينة أعتق جميع مماليكه، وخرج من جميع المظالم، ولم يزالوا مستغفرين متضرعين حتى سكنت الزلزلة، إلا أن النار التي ظهرت لم تنقطع، وجاء القاصد المذكور ولها خمسة عشر يوماً وإلى الآن.

قال ابن الساعي: وقرأت بخط العدل محمود بن يوسف بن الأمعاني شيخ حرم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، يقول: إن هذه النار التي ظهرت بالحجاز آية عظيمة، وإشارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الفوت، وتدارك أمره بإصلاح حاله مع اللّه عز وجل قبل الموت، وهذه النار في أرض ذات حجر لا شجر فيها ولا نبت، وهي تأكل بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله، وهي تحرق الحجارة وتذيبها، حتى تعود كالطين المبلول، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير فاللّه يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين بمحمد وآله الطاهرين.

قال أبو شامة: وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق مسجد المدينة على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثَمَّ، ومعه نار فعلقت في الآلات ثم، واتصلت بالسقف بسرعة، ثم دبت في السقوف، وأخذت قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها، وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية ووقع ما وقع منه في الحجرة، وبقي على حاله حتى شرع في عمارة سقفه وسقف المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وأصبح الناس فعزلوا موضعاً للصلاة، وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات وكأنها كانت منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

هذا كلام الشيخ شهاب الدين أبي شامة.

وقد قال أبو شامة في الذي وقع في هذه السنة وما بعدها شعراً وهو قوله:

بعد ستّ من المئين وخمسين لدى أربع جرى في العام
نار أرض الحجاز مع حرق المسجد معه تغريق دار السّلام
ثمّ أخذ التّتار بغداد في أوّل عام، من بعد ذاك وعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوان عليهم، يا ضيعة الإسلام
وانقضت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام
فحنانا على الحجاز ومصر وسلاماً على بلاد الشّام
ربّ سلّم وصن وعاف بقايا المدن، يا ذا الجلال والإكرام

وفي هذه السنة كملت المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفرادیس، وحضر فيها الدرس واقفها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فاتح بيت المقدس، ودرس فيها قاضي البلد صدر الدين ابن سَنِيّ الدولة، وحضر عنده الأمراء والدولة والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق.

وفيها أمر بعمارة الرباط الناصري بسفح قاسيون.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان

الشيخ عماد الدين

■ عبد الله بن الحسن بن النحاس ترك الخدم وأقبل على الزهادة والتلاوة والعبادة والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده بسفح قاسيون نحواً من ثلاثين سنة، وكان من خيار الناس. ولما توفي دفن عند مسجده بتربة مشهورة به، وحمام ينسب إليه في مسارق الصالحية، وقد أثنى عليه السبط، وأرخوا وفاته كما ذكرنا.

■ يوسف ابن الأمير حسام الدين قِزْغلي بن عبد الله عتيق الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الحنبلي رحمه الله تعالى الشيخ شمس الدين أبو المظفر الحنفي البغدادي ثم الدمشقي.

■ سبط ابن الجوزي، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ كثير الفضائل والمصنفات، وله «مرآة الزمان» في عشرين مجلداً من أحسن التواريخ، نظم فيه المنتظم لجده، وزاد عليه وذيل إلى زمانه، وهو من أحسن التواريخ وأبهجها قدم دمشق في حدود الستمائة وحظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه، وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي يقوم عند الوعاظ اليوم عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده، ثم يسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن، على طريقة جده.

وقد كان الشيخ تاج الدين الكندي، وغيره من المشايخ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد، التي عند باب المشهد، ويستحسنون ما يقول ودرس بالعزية البرانية التي بناها الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ دار المعظم، وهو واقف العزية الجوانية التي بالكشك أيضاً، وكانت قديماً تعرف بدور ابن منقذ ودرس السبط أيضاً بالشبلية التي بالجبل عند جسر كحيل، وفوض إليه البدرية التي قبالتها، فكانت سكنه، وبها توفي ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة وحضر جنازته سلطان البلد الملك الناصر بن العزيز فمن دونه وقد أثنى عليه الشيخ شهاب الدين أبو شامة في علومه وفضائله ورياسته وحسن وعظه وطيب صوته ونضارة وجهه، وتواضعه، وزهده وتودده، لكنه قال: وقد كنت مريضاً ليلة وفاته فرأيت وفاته في المنام قبل اليقظة، ورأيته في حالة منكرة، ورآه غيري أيضاً كذلك، فنسأل الله العافية، ولم أقدر على حضور جنازته، وكانت جنازته حافلة حضرها خلق كثير السلطان فمن دونه، ودفن هناك.

وقد كان فاضلا عالماً ظريفاً منقطعاً منكراً على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات، وقد كان مقتصداً في لباسه مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، منصفاً لأهل العلم والفضل، مبايناً لأهل الجبرية والجهل، وتأتي الملوك وأرباب المناصب إليه زائرين وقاصدين، ورئي في طول زمانه في حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطرباً، وصوته فيما يورده حسناً طيباً، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

قلت: وهو ممن يُنشد له عند موته قو الشاعر:

ما زلتَ تدأبُ في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً

وقد سئل يوم عاشوراء زمن الملك الناصر صاحب حلب أن يذكر للناس شيئا من مقتل الحسين فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى ثم أنشأ يقول وهو يبكي شديداً:

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصّور في نشر الخلائق ينفخ

لا بد أن ترد القيامة فاطم وقميصها بدم الحسين ملطّخ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكي وصعد إلى الصالحية وهو كذلك رحمه الله.

واقف مرستان الصالحية الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن

■ يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمري الكردي، أكبر أمراء القيمرية، كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك، ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون، وكانت وفاته ودفنه بالسفح في القبة التي تجاه المارستان المذكور، وكان ذا مال كثير وثروة رحمه الله تعالى

■ مجير الدين يعقوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب دفن عند والده بتربة العادلية.

الأمير

■ مظفر الدين إبراهيم ابن صاحب صرخد عز الدين أيبك أستاذ دار المعظم واقف العزيتين البرانية والجوانية على الحنفية، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة رحمهما الله تعالى.

الشيخ شمس الدين

■ عبد الرحمن بن نوح المقدسي الفقيه الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه تقي الدين ابن الصلاح، ودفن بالصوفية، وكانت له جنازة حافلة رحمه الله.

قال أبو شامة: وكثر في هذه السنة موت الفجأة: فمات خلق كثير بسبب ذلك.

ومن توفي فيها

■ زكي الدين بن الفُويرة أحد المعدلين بدمشق.

■ بدر الدين بن التبنيني أحد رؤسائها.

وعز الدين

■ عبد العزيز بن أبي طالب بن عبد الغفار التغلبي بن الحنوي، وهو سبط القاضي جمال الدين بن الحرستاني، رحمهم الله تعالى وعفا عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها أصبح الملك المعز صاحب مصر عز الدين أيبك التركماني بداره ميتاً وقد ولّي الملك بعد أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب بشهور. كان فيها ملك تورانشاه المعظم بن الصالح، ثم خلفته شجرة الدرّ أم خليل مدة ثلاثة أشهر ثم أقيم هو في الملك، ومعه الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس بن الكامل مدة، ثم استقل بالملك بلا منازعة، وكسر الناصر لما أراد أخذ الديار المصرية وقتل الفارس أقطاي في سنة اثنتين وخمسين، وخلع بعده الأشرف واستقل بالملك وحده، ثم تزوج بشجرة الدر أم خليل، وكان كريماً شجاعاً حكيماً ديناً، ثم كان موته في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، وهو واقف المدرسة المعزية بمصر ومجازها من أحسن الأشياء، وهي من داخل ليست بتلك الفائقة.

وقد قال بعضهم فيها: هذه مجاز لا حقيقة له ولما قتل رحمه الله اتهم

مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به، وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضربه بقباقيبها والجواري يعركن في معاريه حتى مات وهو كذلك، ولما سمعوا مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز، فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة، بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع، وقد علّمت على المناشير والتواقيع، وخطب الخطباء باسمها، وضربت السكة برسمها، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] وأقامت الأتراك بعد أستاذهم عز الدين أيبك التركماني، بإشارة أكبر مماليكه الأمير سيف الدين قطز، ولده نور الدين علياً ولقبوه الملك المنصور، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وجرت الأمور على ما يختاره برأيه ورسمه.

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة، فنهبت الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي، وكان ذلك من أقوى الأسباب في مماليكه للتتار.

وفيها دخلت الفقراء الحيدرية الشام، ومن شعارهم لبس الفراجي والطراطير ويقصون لحاهم ويتركون شواربهم، وهو خلاف السنة، تركوها لمتابعة شيخهم حيدر حين أسره الملاحدة فقصوا لحيته وتركوا شواربه، فاقتدوا به في ذلك [انظر: البخاري (٥٨٩٢، ٥٨٩٣)، م (٢٥٩، ٢٦٠)]، وهو معذور مأجور وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وليس لهم في شيخهم قدوة وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريباً من العونية.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة المباركة عمل عزاء واقف البادرائية بها الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي البغدادي مدرس النظامية، ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق في الأمور المهمة، وإصلاح الأحوال المدلهمة، وقد كان فاضلا بارعاً رئيساً وقورا متواضعاً، وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة مكان دار الأمير أسامة، وشرط على المقيم بها العزوبة وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس، وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعيته على طلب العلم، ولكن حصل بذلك خلل كثير وشر لبعضهم كبير.

وقد كان شيخنا الإمام العلامة، شيخ الشافعية بالشام وغيرها برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ تاج الدين الفزاري مدرس هذه المدرسة وابن مدرسها، يذكر أنه لما حضر الواقف في أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الناصر، قرأ كتاب الوقف وفيه: ولا يدخلها امرأة. فقال السلطان ولا صبي؟ فقال الواقف: يا مولانا السلطان ربنا ما يضرب بعصاتين. فإذا ذكر هذه الحكاية تبسم عندها رحمه الله تعالى.

وكان هو أول من درس بها ثم ولده كمال الدين من بعده، وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد، ثم صار في ذريته إلى الآن وقد نظر فيه بعض الأوقات القاضي شمس الدين بن الصائغ ثم انتزع منه حيث أثبت لهم النظر، وقد أوقف البادرائي على هذه المدرسة أوقافاً حسنة دارة، وجعل فيها خزانة كتب حسنة نافعة وقد عاد إلى بغداد في هذه السنة فولي بها قضاء القضاة كرهاً منه، فأقام فيه سبعة عشر يوماً ثم توفي إلى رحمة الله تعالى في مستهل ذي الحجة من هذه السنة ودفن بالشونيزية رحمه الله تعالى.

وفي ذي الحجة من هذه السنة بعد موت البادرائي بأيام قلائل نزلت التتار على بغداد مقدمة لملكهم هولاكو بن تولي بن جنكزقان عليهم لعائن الرحمن، وكان افتتاحهم لها وجنايتهم عليها في أول السنة الآتية على ما سيأتي بيانه وتفصيله ـ وبالله المستعان.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

■ الباذراني واقف البادرائية التي بدمشق كما تقدم بيانه رحمه الله تعالى.

والشيخ تقي الدين

■ **عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني** بها في ثامن ربيع الأول ودفن فيها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلا بالحديث سماعاً وكتابة وإسماعاً، إلى أن توفي وله نحو مائة سنة.

قلت: وأكثر كتبه ومجاميعه التي بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة، وقد رأى في المنام رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله ما أنا رجل جيد؟ قال: بلى أنت رجل جيد، رحمه الله وأكرم مثواه.

الشيخ شرف الدين

■ **محمد بن أبي الفضل المرسي**، وكان شيخاً فاضلا متقناً محققاً للبحث كثير الحج، له مكانة عند الأكابر، وقد اقتنى كتباً كثيرة، وكان أكثر مقامه بالحجاز، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلدة وكان مقتصداً في أموره، وكانت وفاته رحمه الله بالزُّعْقَة بين العريش والداروم في منتصف ربيع الأول من هذه السنة رحمه الله تعالى.

الملك الناصر

■ **داود بن المعظم عيسى بن العادل**، ملك دمشق بعد أبيه، ثم انتزعت من يده وأخذها عمه الأشرف واقتصر على الكرك ونابلس، ثم تنقلت به الأحوال وجرت له خطوب طوال حتى لم يبق معه شيء من المحال، وأودع وديعة تقارب مائة ألف دينار عند الخليفة المستنصر فأنكره إياها ولم يردها عليه، وقد كان له فصاحة وشعر جيد، ولديه فضائل جمة، واشتغل في علم الكلام على الشمس الخسروشاهي تلميذ الفخر الرازي، وكان يعرف علوم الأوائل جداً، وحكوا عنه أشياء تدل إن صحت على سوء عقيدته فالله أعلم.

وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنتُ في يوم السّقيفة شاهداً ... كنتُ المقدّمَ والإمامَ الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر: اسكت فقد أخطأت، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا أبو بكر الصديق ﷺ، فقال الخليفة: صدق، فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى.

وقد تقاصر أمره إلى أن رسم عليه الناصر بن العزيز بقرية البويضا التي لعمه مجير الدين يعقوب حتى توفي بها في هذه السنة، فاجتمع الناس بجنازته، وحمل منها فصلّي عليه ودفن عند والده بسفح قاسيون.

الملك المعز

■ **عز الدين أيبك التركماني**، أول ملوك الأتراك، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وكان ديناً صيناً عفيفاً كريماً، مكث في الملك نحواً من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجر الدر أم خليل، وقام في الملك من بعده ولده نور الدين علي، ولقب بالملك المنصور، وكان مدبر

مملكته مملوك أبيه سيف الدين قطز، ثم عزله واستقل بالملك بعده نحواً من سنة وتلقب بالمظفر، فقدّر الله كسرة التتار على يديه بعين جالوت وقد بسطنا هذا كله في الحوادث فيما تقدم وما سيأتي ولله الحمد.

■ شجر الدرّ بنت عبد الله أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور، فمات صغيراً، وكانت تكون في خدمته لا تفارقه حضراً ولا سفراً من شدة محبته لها وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلّمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر، ثم تملك المعز كما ذكرنا، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية بسنوات، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ فعملت عليه حتى قتلته كما تقدم ذكره، فتمالأ عليها مماليكه المعزية فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله تعالى.

وكانت قوية النفس، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر النفسية واللآلئ المثمنة، كسرته في الهاون لا لها ولا لغيرها، وكان وزيرها في دولتها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سُليم المعروف بابن حِنّاء وهو أول مناصبه.

الشيخ الأسعد

■ هبة الله بن صاعد شرف الدين الفائزي لخدمته قديماً الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل، وكان نصرانياً فأسلم، وكان كثير البرّ والصدقات والبر والصلات، استوزره المعز وكان حظياً عنده جداً، لا يفعل شيئاً إلا بعد مراجعته ومشاورته، وكان قبله في الوزارة القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وقبله القاضي بدر الدين السنجاري، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلماني،وقد كان الفائزي يكاتبه المعز بالمملوك، ثم لما قتل المعز أهين الأسعد حتى صار شقياً، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار،وقد هجاه بهاء الدين زهير بن علي، فقال:

لعن اللّهُ صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحداً ثم واحدا

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن بالقرافة، وقد رثاه القاضي ناصر الدين ابن المنير، وله فيه مدائح وأشعار حسنة فصيحة رائقة.

■ ابن أبي الحديد العراقي الشاعر عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين أبو حامد بن أبي الحديد عز الدين المدائني، الكاتب الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً، ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة، ثم صار إلى بغداد فكان أحد الكتاب والشعراء بالديوان الخليفتي، وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي، لما بينهما من المناسبة والمقاربة والمشابهة في التشيع والأدب والفضيلة، وقد أورد له ابن الساعي أشياء كثيرة من مدائحه وأشعاره الفائقة الرائقة وكان أكثر فضيلة وأدباً من أخيه أبي المعالي موفق الدين أحمد بن هبة الله وإن كان الآخر فاضلا بارعاً أيضاً، وقد ماتا في هذه السنة رحمهما الله تعالى.

المشد الشاعر الأمير سيف الدين

■ علي بن عمر بن قزل مشد الديوان بدمشق، وكان شاعراً مطبقاً له ديوان مشهور، وقد رآه بعضهم بعد موته فسأله عن حاله فأنشده:

نقلت الى رمس القبور وضيقها وخوفي ذنوبي أنّها بي تعثر
فصادفت رحماناً رؤوفاً وأنعماً حباني بها فَفْياً لما كنت أحذر
ومن كان حسن الظّنّ في حال موته جميلا بعفو اللّه فالعفو أجدر

■ بشارة بن عبد الله الأرمني الأصل بدر الدين الكاتب مولى شبل الدولة المعظمي، سمع الكندي وغيره، وكان يكتب خطا جيداً وأسند إليه مولاه النظر في أوقافه وجعله في ذريته، فهم إلى الآن ينظرون في الشبليتين، وكانت وفاته في النصف من رمضان من هذه السنة.

القاضي

■ تاج الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين المصري ناب عن أبيه ودرس بالشامية، وله شعر فمنه قوله:

صيّرت فمي لفيه بالثّم لثام عمداً ورشفت من ثناياه مدام
فازورّ وقال أنت في الفقه إمام ريقي خمر وعندك الخمر حرام

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها.

استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكو قان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة ومبرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبّحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المناجيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا تردّ من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر: «لن يغني حذر عن قدر» [المستدرك: ٤٩٢/١] وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ومَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنُّشّاب من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرة الستائر على دار الخلافة - وكان قدوم هولاكو قان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف، مقاتل - إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همذان متوجهاً إلى العراق أشارالوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث إليه بشيء يسير، فأرسل شيئا من الهديا فاحتقرها هولاكو قان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالى به حتى أزف قدومه، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر،

فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي.

وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب شديدة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير فاشتد حنقه على ذلك فكان هذا مما أهاجه على أن دبّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج في أهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو فان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائه راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو قان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خواجا نصير الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين - لعنة الله عليهم - على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزيران ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال غُرّق فالله أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده - وستأتي ترجمة الخليفة في الوفيات - ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقُنِيَّ الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى القناة ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم في الأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها أحد إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.

وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر ، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وجلّى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضية وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد جرى على بني إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد كما قص الله تعالى علينا ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٤-٥] الآيات. وقد قتل من بني إسرائيل خلق من الصلحاء وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعدما كان معموراً بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء فصار خاوياً على عروشه واهي البناء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة فقيل ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف.

وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين صباحاً، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعَفَى قبره، وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، منهم الديودار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه وجواريه فيذهب به إلى مقبرة الخلاّل،تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل

المساجد والجوامع والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم في الدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى أمد الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت البلد من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من كان تحت الأرض بالمطامير والقُبُيّ والمغاير كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا ولحقوا بمن سلف من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو قان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه وفوض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله بعدُ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب، ولكنه كان شيعياً جلداً رافضياً خبيثاً، فمات كمداً وغماً وحزناً وندماً، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، فولي بعده الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام فالله أعلم.

وفي هذه السنة اقتتل المصريون مع صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل بن أبي بكر بن العادل الكبير، وكان في جيشه جماعة من أمراء البحرية، منهم ركن الدين بيبرس البندقداري، فكسرهم المصريون ونهبوا ما كان معهم من الأثقال والأموال، وأسروا جماعة من رؤوس الأمراء، فقتلوا صبراً، وعادوا إلى الكرك في أسوإ حال وأشنعه، وجعلوا يفسدون في الأرض ويعيثون في البلاد، فأرسل اليهم الناصر صاحب، دمشق جيشاً ليكفهم عن ذلك، فكسرهم البحرية واستنصروا فبرز إليهم الناصر بنفسه فلم يلتفتوا إليه وقطعوا أطناب خيمته التي هو فيها بإشارة ركن الدين بيبرس المذكور، وجرت حروب وخطوب يطول بسطها وبالله المستعان.

ومن توفي في هذه السنة من المشاهير والأعيان

خليفة الوقت

■ **المستعصم بالله**: أمير المؤمنين آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله، وهو أبو أحمد عبد الله ابن امير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بالله أبي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي.

مولده سنة تسع وستمائة، وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة فيكون عمره يوم قتل سبعاً وأربعين سنة رحمه الله تعالى.

وقد كان رحمه الله تعالى حسن الصورة جيد السيرة صحيح السريرة صحيح العقيدة مقتدياً بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد، وقد استجاز له الحافظ ابن النجار من جماعة من مشايخ خراسان، منهم المؤيد الطوسي، وأبو روح عبد المعز بن محمد الهروي وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصفار وغيرهم، وحدث عنه جماعة منهم مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن النيار، وأجاز هو للإمام محيي الدين بن الجوزي، وللشيخ نجم الدين البادرائي، وحدثا عنه بهذه الإجازة.

وقد كان رحمه الله تعالى سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه غلّ الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعظم، وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ [آل عمران: ٧٥]

قتلته التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة، وله من العمر ست وأربعون سنة وأربعة أشهر. وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، فرحمه الله وأكرم مثواه، وبلّ بالرحمة ثراه. وقد قتل بعده ولداه، وأسر ابنه الثالث مع بنات ثلاث من صلبه، وشغر منصب الخلافة بعده، ولم يبق في بني العباس من سد مسده، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس، ومن يرتجى منهم النوال ويخشى منهم الباس، وختموا بعبد الله المستعصم كما فتحوا بعبد الله السفاح وكان عدة خلفاء بني العباس إلى المستعصم سبعة وثلاثين خليفة، فكان أولهم عبد الله السفاح، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة ثنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية كما تقدم بيانه، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام أعني سنة ست وخمسين وست مئة، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، وزال ملكهم عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة، ثم عادت كما كانت وقد بسطنا ذلك في موضعه في أيام القائم بأمر الله ولله الحمد.

ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد

المغرب، ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممن بقي منهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة كما ذكرنا، وقارن بني العباس دولة المدعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب، وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر، وتداولتها الملوك دولا بعد دول، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات، كما ذكر ذلك مبسوطاً في الحوادث والوفيات.

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد الستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية المقدسية كما ذكرنا، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً متخلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أنّ خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة كما نطق بها الحديث الصحيح [المسند ٥/٢٢٠، ٢٢١، د(٤٦٤٦)، ت (٢٢٢٦)]، فكان فيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن بن علي ستة شهور حتى كملت بها الثلاثون كما قررنا ذلك في دلائل النبوة.

ثم كانت ملكاً فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية، المختتم بمعاوية.

ثم ملك مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك؛ ثم الوليد بن عبد الملك، ثم أخوه سليمان ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضاً، ثم مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، ثم انقرضوا من أولهم إلى خاتمهم.

وكان أول خلفاء بني العباس السفاح، واسمه عبد الله وكان وآخرهم عبد الله المستعصم واسمه عبد الله.

وكذلك أول خلفاء الفاطميين، فالأول اسمه عبد الله المهدي وآخرهم عبد الله العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قلّ من يتنبه له، والله سبحانه أعلم.

وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء فيها ذكر جميع الخلفاء:

الحمد لله العظيم عرشه ... القاهر الفرد القويّ بطشه
مقلّب الأيام والدهور ... وجامع الأنام للنشور
ثمّ الصلاة بدوام الأبد ... على النبيّ المصطفى محمّد
وآله وصحبه الكرام ... السّادة الأئمّة الأعلام
وبعد هذا هذه أرجوزه ... نظمتها لطيفةً وجيزه
نظمت فيها الرّاشدين الخلفا ... من قام بعد النّبيّ المصطفى
ومن تلاهم وهلمّ جرّا ... جعلتها تبصرةً وذكرى
ليعلم العاقل ذو التّصوير ... كيف جرت حوادث الأمور
وكلّ ذي مقدرة وملك ... معرضون للفنا والهلك
وفي اختلاف اللّيل والنّهار ... تبصرة لكلّ ذي اعتبار
والملك للجبّار في بلاده ... يورثه من شاء من عباده
وكلّ مخلوق فللفناء ... وكلّ ملك فإلى انتهاء
ولا يدوم غير ملك الباري ... سبحانه من ملك قهّار
منفرد بالعزّ والبقاء ... وما سواه فإلى انقضاء
أوّل من بويع بالخلافه ... بعد النّبيّ ابن أبي قحافه
أغني الإمام العادل الصّدّيقا ... ثمّ ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا ... وستأصلت سيوفه الكفّارا
وقام بالعدل قياماً يرضي ... بذاك جبّار السّما والأرض
ورضي النّاس بذي النّورين ... ثمّ عليّ والسّبطين
ثم أتت كتائب مع الحسن ... كادوا بأن يجدّدوا بها الفتن
فأصلح الله على يديه ... كما عزا نبيّنا إليه
وأجمع النّاس على معاويه ... ونقل القصّة كلّ راويه
فمهّد الملك كما يريد ... وقام فيه بعده يزيد
ثمّ ابنه وكان برّاً راشدا ... أعني أبا ليلى وكان زاهدا
فترك الإمرة لا عن غلبه ... ولم يكن منه إليها طلبه
وابن الزّبير بالحجاز يداب ... في طلب الملك وفيه ينصب
وبالشّام بايعوا مروانا ... بحكم من يقول كن فكانا
ولم يدم في الملك غير عام ... وعافصته أسهم الحمام
واستوسق الملك لعبد الملك ... ونار نجم سعده في الفلك
وكلّ من نازعه في الملك ... خرّ صريعاً بسيوف الهلك
فقتل المصعب بالعراق ... وسيّر الحجّاج ذا الشّقاق
إلى الحجاز بسيوف النّقم ... وابن الزبير لائذ بالحرم
فجاء بعد قتله بصلبه ... ولم يخف في أمره من ربّه
وعندما صفت له الأمور ... تقلّبت لحينه الدّهور
ثم أتى من بعده الوليد ... ثمّ سليمان الفتى الرّشيد
ثم استفاض في الورى عدل عمرْ ... تابع أمر ربّه كما أمر
وكان يدعى بأشجّ القوم ... وذي الصّلاة والتّقى والصّوم
فجاء بالعدل والإحسان ... وكفّ أهل الظّلم والطّغيان
مقتدياً بسنّة الرّسول ... والرّاشدين من ذوي العقول
فجرع الإسلام كأس فقده ... ولم يروا مثلا له من بعده
ثمّ يزيد بعده هشام ... ثمّ الوليد فتّ منه الهام
ثمّ يزيد وهو يدعى النّاقصا ... فجاءه حمامه معافصا
ولم تطل مدّة إبراهيما ... وكان كلّ أمره سقيما
وأسند الملك إلى مروانا ... فكان من أموره ما كانا
وانقرض الملك على يديه ... وحادث الدّهر سطا عليه
وقتله قد كان بالصّعيد ... ولم تفده كثرة العديد
وكان فيه حتف آل الحكم ... واستنزعت عنهم ضروب النّعم

ثمّ أتى ملك بني العبّاس ... لا زال فينا ثابت الأساس
وجاءت البيعة من أرض العجم ... وقلّدت بيعتهم كلُّ الأمم
وكلّ من نازعهم من أمم ... خرّ صريعاً لليدين والفم
وقد ذكرت من تولّى منهم ... حين تولّى القائم المستعصم
أوّلهم ينعت بالسفاح ... وبعده المنصور ذو النجاح
ثم أتى من بعده المهدي ... يتلوه موسى الهادي الصفي
وجاء هارون الرشيد بعده ... ثم الأمين حين ذاق فقده
وقام بعد قتله المأمونُ ... وبعده المعتصم المكين
واستخلف الواثق بعد المعتصم ... ثم أخوه جعفر موفي الذمم
وأخلص النية في التوكّل ... للّه ذي العرش القديم الأول
فادحض البدعة في زمانه ... وقامت السنة في أوانه
ولم يسق فيها بدعة مضلة ... وألبس المعتزلي ذلّه
فرحمة اللّه عليه أبدا ... ما غار نجم في السماء أو بدا
وبعده استولى وقام المعتمد ... ومهد الملك وساس المقتصد
وعندما استشهد قام المتصر ... والمستعين بعده كما ذكر
وجاء بعد موته المعتز ... والمهتدي المكرّم الأعز
وبعده استولى وقام المعتمدْ ... ومهّد المُلكَ وساس المعتضدْ
والمكتفي في الصُحف العلا سُطِرْ ... وبعده ساس الأمور المقتدر
واستوسق الملك بعز القاهر ... وبعده الراضي أخو المفاخر
والمتقي من بعدُ والمستكفي ... ثم المطيع ما به من خلف
والطائع الطائع ثم القادر ... والقائم الزاهد وهو الشاكر
والمقتدي من بعده المستظهر ... ثم أتى المسترشد الموقر
وبعده الراشد ثم المقتفي ... وحين مات استنجدوا بيوسف
المستضي العادل في أفعاله ... الصادق الصدوق في أقواله
والناصر الشهم الشديد الباس ... ودام طول مكثه في الناس
ثم تلاه الظاهر الكريم ... وعدله كل به عليم
ولم تطل أيامه في المملكه ... غير شهور واعترته الهلكه
وعهده كان إلى المستنصر ... العادل البر الكريم العنصر
دام يسوس الناس سبع عشره ... وأشهراً بعزمات بره
ثم توفي عام أربعينا ... وفي جمادى صادف المئونا
وبايع الخلائق المستعصما ... صلى عليه ربنا وسلما
يبعثُ نُجُبَ الرسل في الآفاق ... يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا ... ونشروا من جوده المفاخرا
وسار في الآفاق حسن سيرته ... وعدله الزائد في رعيته

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه اللّه تعالى: ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتا:

ثم ابتلاه اللّه بعدُ بالتتار ... أتباع جنكز الخان الجبار
صحبة ابنٍ ابنٍ له هولاكو ... فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله ... وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا ... وقتّلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم ... ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرهم إنظاره وحلمه ... وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافه ... ولم يؤرخ مثلها من آفه
ثم أقام الملك أعني الظاهرا ... خليفةً أعني به المستنصرا
ثم ولي من بعد ذاك الحاكم ... سميم بيبرس الإمام العالم
ثم ابنه الخليفة المستكفي ... وبعض هذا للبيت يكفي
ثم ولي من بعده جماعه ... ما عندهم علم ولا بضاعه
ثم خليفة الوقت المعتضد ... ولا يكاد الدهر مثله يجد
في حسن خلق واعتقاد وحلى ... وكيف لا وهو من الشُمِّ الأولى
سادوا البلاد والعباد فضلا ... وملؤوا الأقطار حكماً وعدلا
أولاد عم المصطفى محمد ... وأفضل الخلق بلا تردد
صلى عليه اللّه ذو الجلال ... ما دامت الأيام والليالي

فصل

والفاطميون قليلو العده ... لكنهم مد لهم في المده
فملكوا بضعاً وستين سنه ... من بعد مائتين وكان كالسنه
والعدة أربع عشرة المهدي ... والقائم المنصور المعدي
أعني به المعز باني القاهره ... ثم العزيز الحاكم الكوافره
والظاهر المستنصر المستعلي ... والآمر الحافظ عنه سوء الفعل
والظافر الفائز ثم العاضد ... آخرهم وما لهذا جاحد
أهلك بعد البضع والستينا ... من قبلها خمسمائة سنينا
وقد رقمتُ العمر فوق الاسم ... ومُدّة الدولة تحت الاسم
وقد بسطنا ذاك فيما سلفنا ... وأصلهم يهودُ ما هم شُرفا

فصل

وهكذا خلفا بني أميه ... عدتهم كمدة الرفضيه
ولكن المدة كانت ناقصه ... عن مائة من السنين خالصه
وكلهم قد كان ناصبيا ... إلا الإمام عمر التقيا
معاويه ثم ابنه يزيد ... وابن ابنه معاوي السديد
مروان ثم ابن له عبد الملك ... منابذ لابن الزبير حتى هلك
ثم استقل بعده بالملك ... في سائر الأرض بغير شك
ثم الوليد النجل باني الجامع ... وليس مثله شكله من جامع
ثم سليمان الجواد وعمر ... ثم يزيد وهشام وغدر
أعني الوليد بن يزيد الفاسقا ... ثم يزيد بن الوليد فانقا
يلقب الناقص وهو كامل ... تُمّتْ إبراهيم وهو عاقل

ثم مروان الحمار الجعدي آخرهم فاظفر بذا من بعدي
والحمد لله على التمام كذاك نحمده على الإنعام
ثم الصلاة مع تمام العدد على النبي المصطفى محمد
وآله وصحبه الأخيار في سائر الأوقات والأعصار
وهذه الأبيات نظم الكاتب ثمانية تتمة المناقب

■ (يوسف بن جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي).

ومن قتل مع الخليفة واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة الصاحب محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي.

ولد في ذي القعدة سنة ثمانين وخمسمائة، ونشأ شاباً حسناً، وحين توفي أبوه وعظ في موضعه فأحسن وأجاد وأفاد، ثم تقدم فولي حسبة بغداد مع الوعظ الرائق والأشعار الحسنة الرائقة، ثم ولي تدريس الحنابلة بالمستنصرية سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكانت له تداريس أخر، ولي أستاذ دار الخلافة، وكان رسولا للملوك من بني أيوب وغيرهم من جهة الخلفاء ثم لما ولي مؤيد الدين بن العلقمي الوزارة وشغر عنه الأستاذ دارية وليها محيي الدين هذا، وانتصب ابنه عبد الرحمن مكانه للحسبة والوعظ فأجاد فيها، وشعَر أيضاً حسناً، ثم كانت الحسبة تتنقل في بنيه الثلاثة جمال الدين عبد الرحمن، وأشرف الدين عبد الله، وتاج الدين عبد الكريم. وقد قتلوا معه في هذه السنة رحمهم الله.

ولمحيي الدين هذا مصنف في مذهب الإمام أحمد، وقد ذكر له ابن الساعي أشعاراً حسنة يهنئ بها الخليفة في المواسم والأعياد، تدل على فضيلة تامة وفصاحة بالغة، وقد وقف المدرسة الجوزية بدمشق وهي من أحسن المدارس وأوجهها، تقبل الله منه وأثابه برحمته.

■ الصرصري المادح يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام الشيخ الإمام العلامة البارع الفاضل في أنواع من العلوم، جمال الدين أبو زكريا الصرصري، الشاعر المادح الحنبلي الضرير البغدادي، معظم شعره في مدح رسول الله ﷺ وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر، ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وسمع الحديث وحفظ الفقه واللغه ويقال إنه كان يحفظ صحاح الجوهري بتمامه في اللغة. وصحب الشيخ علي بن إدريس تلميذ الشيخ عبد القادر.

وكان ذكياً، يتوقد نوراً، وكان ينظم على البديهة سريعاً أشياء حسنة فصيحة بليغة، وقد نظم الكافي الذي ألفه موفق الدين بن قدامة، ومختصر الخرقي.

وأما مدائحه في رسول الله ﷺ فيقال إنها تبلغ عشرين مجلداً، وما اشتهر عنه أنه مدح أحداً من المخلوقين من بني آدم إلا الأنبياء، ولما دخل التتار إلى بغداد دعي إلى دار بها فرمان من هولاكو فأبى أن يجيب إليه، وأعد في داره حجارة فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحدهم، ثم قتلوه شهيداً رحمه الله تعالى وله من العمر ثمان وستون سنة.

وقد أورد له الشيخ قطب الدين اليونيني من ديوانه قطعة صالحة في ترجمته في الذيل [ذيل مرآة الزمان: ٢٥٨/١-٣٣٢]، استوعب حروف المعجم، كلها وذكر غير ذلك قصائد طوالا كثيرة حسنة.

■ البهاء زهير صاحب الديوان: وهو زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكي المصري، ولد بمكة ونشأ بقوص، وأقام بالقاهرة، الشاعر المطبق الكاتب الجواد في حسن الخط له ديوان مشهور، وقدم على السلطان الصالحنجم الدين أيوب، وكان غزير المروءة حسن التوسط في إيصال الخير إلى الناس، ودفع الشر عنهم، وقد أثنى عليه ابن خلكان وقال: أجاز لي رواية ديوانه، وهو مشهور وقد بسط ترجمته الشيخ قطب الدين اليونيني.

الحافظ زكي الدين

■ المنذري عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد بن سعيد، الإمام العلامة الحافظ أبو محمد أبو زكي الدين المنذري الشافعي المصري، أصله من الشام وولد بمصر، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة، إليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة.

وقيل: إنه ولد بالشام سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وسمع الكثير ورحل وطلب وعني بهذا الشأن، حتى فاق أهل زمانه فيه، وصنف وخرج، واختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وهو أحسن اختصاراً من الأول، وله اليد الطولى في اللغة والفقه والتاريخ. وكان ثقة حجة متحرياً زاهداً، توفي يوم السبت رابع ذي القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية بمصر ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

النور أبو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم

■ الإسعردي الشاعر المشهور الخليع، كان القاضي صدر الدين بن سني الدولة قد أجلسه مع الشهود تحت الساعات، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد فجعله من جلسائه وندمائه، وخلع عليه خلع الأجناد، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره، وجمع كتابا سماه «الزرجون في الخلاعة والمجون». وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر والخلاعة، ومن شعره الذي لا يحمد:

لذة العمر خمرة فاقتنيها من خليع غدا أديباً فقيها
في نديم وقينة وحبيب ومدام وسب من لام فيها

الوزير

■ ابن العلقمي الرافضي قبحه الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي، وخدمه في أيام المستنصر، أستاذ دار الخلافة مدة طويلة، ثم صار وزير المستعصم ولم يكن وزير صدق، فإنه كان من الفضلاء الأدباء في الإنشاء والأدب، وكان رافضياً خبيثا رديء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالأ على الإسلام وأهله التتار أصحاب هولاكو حتى جاؤوا فجاسوا خلال الديار، وكان أمراً مفعولاً ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذوناً وهو، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه وقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضيقاً، وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

ودفن في قبور الروافض، وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من

التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يا فرقةَ الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفاً على ما حلَّ بالمستعصم
دستُ الوزارةَ كانَ قبلَ زمانه ... لابن الفراتِ فصار لابنِ العلقمي

■ **محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة:** فتح الدين أبو عبد الله بن العدل محتسب دمشق، كان مشكوراً حسن الطريقة، وجده العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله بن حيدرة، وهو واقف المدرسة التي بالزبداني في سنة تسعين وخمسمائة تقبل الله تعالى منه وجزاه خيراً.

■ **القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم:** أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث المدرس بالإسكندرية، ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسمع الكثير هناك، واختصر الصحيحين، وشرح صحيح مسلم بكتابه المسمى المفهم، وفيه أشياء حسنة مفيدة محررة رحمه الله.

الكمال

■ **إسحاق بن أحمد بن عثمان:** أحد مشايخ الشافعية، أخذ عنه الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وكان مدرساً بالرواحية، وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة.

العماد

■ **داود بن عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل:** أبو المعالي وأبو سليمان الزبيدي المقدسي ثم الدمشقي خطيب بيت الآبار، وقد خطب بدمشق ست سنين بعد انفصال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ودرس بالغزالية، ثم عاد إلى الآبار فمات بها.

■ **علي بن محمد بن الحسين:** صدر الدين أبو الحسن بن النيار شيخ الشيوخ ببغداد، وكان أولا مؤدباً للإمام المستعصم، فلما صارت الخلافة إليه برهة من الدهور رفعه وعظمه وصارت له وجاهة عنده، وولاّه مشيخة الشيوخ ببغداد وانضمت إليه أزمة الأمور، ثم إنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة على أيدي التتار.

الشيخ

■ **علي العابد الخباز:** كان له أصحاب وأتباع ببغداد، وله زاوية يزار فيها، قتلته التتار وألقي على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب لحمه، ويقال إنه أخبر بذلك عن نفسه في حال حياته رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبي الفتح أبو عبد الله المقدسي:** خطيب مردى، سمع الكثير، وعاش تسعين سنة، وقدم في سنة ثلاث وخمسين فسمع الناس عليه الكثير بدمشق، ثم عاد فمات ببلده في هذه السنة رحمه الله.

■ **البدر لؤلؤ صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم،** كانت وفاته في شعبان من هذه السنة عن مائة سنة وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وأزال الدولة الأتابكية عن الموصل، ولما انفصل هولاكو عن بغداد بعد الوقعة العظيمة - سار إلى خدمته متاقيا له، ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده فمكث بعد مرجعه بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية، وتأسف الناس عليه لحسن سيرته وجودة معدلته، وقد جمع له الشيخ عز الدين بن الأثير كتابه المسمى بالكامل في التاريخ فأجازه عليه وأحسن إليه، وكان يعطي لبعض الشعراء ألف دينار. وقام في الملك بعده ولده الصالح إسماعيل.

وقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنياً اشتراه رجل خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي صاحب الموصل، وكان مليح الصورة، فحظي عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه ثم إنه أخنى على أولاد أستاذه فقتلهم غيلة واحدة إلى أن لم يبق معه أحد منهم، فاستقل هو بالملك، وصفت له الأمور، وكان يبعث في كل سنة إلى مشهد علي قنديلا ذهباً زنته ألف دينار، وقد بلغ من العمر قريباً من تسعين سنة، وكان شاباً حسن الشباب من نضارة وجهه، وحسن شكله، وكانت العامة تلقبه قضيب الذهب، وكان ذا همة عالية وداهية شديد المكر بعيد الغور وبعثه إلى مشهد علي بذلك القنديل الذهب في كل سنة دليل على قلة عقله وتشيعه والله أعلم.

الملك

■ **الناصر داود بن المعظم** ترجمه الشيخ قطب الدين اليونيني في تذييله على المرآة [١٢٦/١] في هذه السنة، وبسط ترجمته جداً وما جرى له من مبتدأ أمره إلى آخر زمانه، وأورد من أشعاره وأقواله شيئاً كثيراً، وأفاد أشياء حسنة رحمه الله تعالى. وقد ذكرنا ترجمته في الحوادث، والله أعلم، وقد مَلَك بعدَ أبيه مدينةَ دِمشق وأعمالها مدةً، ثم تمالأ عليه عمّاه الكاملُ والأشرفُ وانتزعاها من يده، وعوّضاه منها الكرك والصُّلْتَ وعَجْلون ونابلُسَ، ثم ذهب ذلك كلُّه من يده وصار إلى العراق، فاستودع الخليفة المستعصم في سنة سبع وأربعين وديعة قيمتها مائة ألف دينار فجحدها الخليفة، فتكرر وفوده إليه، وتوسله بالناس في ردها إليه، فلم يفد من ذلك شيئاً، وتقدم أنه قال لذلك الشاعر الذي مدح الخليفة بقوله:

لو كنت في يوم السقيفة حاضراً ... كنت المقدم والإمام الأروعا

فقال له الناصر داود: أخطأت فقد كان جد أمير المؤمنين العباس حاضراً يوم السقيفة ولم يكن مقدماً، وهو أفضل من أمير المؤمنين، وإنما كان المقدم أبو بكر الصديق، فقال الخليفة صدق وخلع عليه، ونفى الشاعر - وهو الوجيه القيرواني - إلى مصر، فدرس في مدرسة الوزير صفي الدين بن شكر وكانت وفاة الناصر داود بقرية البويضا مرسماً عليه وشهد جنازته صاحب دمشق.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة، وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس وهو واقع بينه وبين المصريين وقد ملكوا نور الدين علي بن المعز أيبك التركماني ولقبوه بالمنصور، وقد أرسل الملك الغاشم هولاكو قان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه، فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاكو قان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه، وأخذ ابنه وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسي، فانزعج الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن